أصول الأخلاق في ضوء القرآن الكريم

الدكتور
عبد الستار محمد نوير
المدرس بقسم التفسير والحديث

هذا البحث يتناول من الأخلاق جوانب هامة وأصولها الرئيسية في ضوء القرآن الكريم .

ويشمل : أهميتها ورسالتها في حياة الفرد والمجتمع ، والسلطة الأخلاقية العليا في نظر القرآن ، وتحرير حقيقة الخلق والفضيلة مع بيان أدناها وأعلاها .

ثم تقرير أن القرآن كله أخلاق (فضائل) من النمط الأعلى وأنه دستورها الفذ ، وأنه يستوعب كل المكارم بلا استثناء وأن اعتبار الأخلاق جزءا منه مصطلح خاص .

ثم التعرض لتحديد أصول الفضائل وأنواعها الكلية في القرآن مع الإشارة إلى ماجاء عن الفلاسفة بهذا الصدد . والله ولي التوفيق . . . . .

الخلق موضوع رئيسي جليل الشأن عظيم الخطر ، لا يمل حديثه ولا تبلى جدته وقد عنيت به كل الرسالات السماوية ، فجميع تعاليمها أخلاقية ، فانها تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، وتهدي إلى الرشد .

وقد كثر الكلام فيه قديماً وحديثاً من عهد فلاسفة الإغريق كسقراط وأرسطو إلى عصر فلاسفة الإسلام وعلمائه كابن مسكوية والإمام الغزالى ، إلى زمننا هذا ومفكريه من شرق وغرب ، مسلمين وغير مسلمين .

ورغم ذلك فلا زال فيه مجالات هامة للتأمل والبحث .

والذي تيسر لي بعون الله من بحوثه ، هو الموضوع صاحب العنوان المذكور وهو يتضمن بيان حقيقة الاخلاق والفضيلة . . ، وبيان الأصول الكبرى التي تقوم عليها ، كما يقتضي التنويه بمنزلة الاخلاق وأهميتها بأعتبارها الباعث والداعي إلى العناية بالاخلاق نظرياً وعملياً ، فهو أصل لا يمكن الاستغناء عنه ويستحق الحفاوة والتقديم ، ومع ذلك قلت الدراسات فيه فيما أعلم هذا ما قصدت إليه مع ما يتعلق به من تفصيل وتمحيص ، كل ذلك في ضوء القرآن الكريم أساساً والسنة المطهرة تبعاً . هذا ، وقد حاولت جهدي التعرف على الاصول الكبرى التي ترجع إليها فروع الاخلاق وجزئياتها ، وأجتهدت في أبرازها وتجليتها .

ومعلوم أن رد الجزئيات إلى الكليات هو وظيفة العلم الجوهرية ، وفضلا عن ذلك فانه هنا يسعف في مجال التربية والتطبيق ، بمعنى أن المسلم إذا عرف اصلا منها هداه إلى عشرات الأخلاق والتصرفات ، دون حاجة إلى كثرة الدروس والعظات والكتب والمطولات ، الا لزيادة التفقه والتخصص العلمي .

وهذا الاسلوب الكلي أو الاجمالي - فيما أرى - هو المطلوب أولاً لاستقامة الانسان وتزكية نفسه ، وبخاصة في هذا العصر المفعم بالاشغال والمشكلات ، وهذا الأسلوب هو الذي يلبي

حاجة سواد الناس ، ويتأكد في تنشئة الصغار في مراحل الطفولة والمراهقة ومراحل الشباب الاولى ، ولنا أن نعتبر في ذلك بوصايا لقمان لابنه وهو يعظه(١) . « أما الزيادة على هذا من التعمق ومعرفة التفاصيل المتعلقة بكل خلق جزئي فيأتي دوره بعد ذلك لمن شاء وكان لديه الأهلية والاستعداد الكافي ، وقد يرشد إلى هذا قوله تعالى « لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة(٢) » .

وقوله : « هو الذي بعث في الاميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة(٣) » .

وقوله : « كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة(٤) » .

فان المتبادر من هذه الآيات ، والذي تقتضيه الحكمة وتعززة القرائن(٥) أن التلاوة أسبق في الترتيب من التزكية (بمعنى التطهير والتربية) ومن التعليم لتفاصيل الدين .

والتلاوة انما تعطي في الغالب المعنى الإجمالي السريع ، بخلاف دروس التعليم المتأنية . وعلى هذا النهج الذي أشار إليه القرآن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير ، فكان يقرأ على أصحابه ما نزل من القرآن ، ويأخذهم بالعمل أولاً بأول .

وهكذا كانت توجيهاته صلى الله عليه وسلم ، فقد أوتى جوامع الكلم ، وكانت كلماته قليلة يحصيها العاد تضيء في الحال طريق العمل ، وتلبى حاجة المتعجل وان كان لها في ذات الوقت أعماق بعيدة ، لا يبلغ الدارس الواعى مداها .

---

(١) سورة لقمان : ١٣ - ١٩ .

(٢) آل عمران : ١٦٤ .

(٣) الجمعة : ٢ .

(٤) البقرة : ١٥١ .

(٥) من هذه القرائن - فضلا عن ذكر الآيات على نمط واحد - أن ابراهيم عليه السلام دعا لأهل الحرم كما قال ابن كثير بقوله كما حكى القرآن : « ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم » البقرة ١٢٩ - فأستجاب الله له مع تعديل في وظائف الرسول حيث قدم التلاوة ووسط التزكية وآخر التعليم كما في الآيات المذكورة ، على خلاف الترتيب في دعوة ابراهيم عليه السلام ، وما ذلك الا للهداية والارشاد والله أعلم .

ومن أمثلة ذلك ما روى عن أبي عمرو وقيل أبي عمرة ـ سفيان ابن عبد الله رضى الله عنه قال : قلت : يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحدفا غيرك ، قال : « قل : أمنت بالله ثم أستقم »(٦).

وكذا ما روى عن وابصه بن معبد رضى الله عنه قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال جئت تسأل عن البر ؟ قلت نعم ، قال أستفت قلبك البر ما اطمأنت إليه النفس وأطمأن إليه القلب ، والاثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر ، وان افتاك الناس وأفتوك(٧).

صحيح أنه صلى الله عليه وسلم كان له إلى جوار ذلك توجيهات كثيرة تتعلق بالتفاصيل ولكن الذي أقصده أنه صلى الله عليه وسلم لم يهمل الأسلوب الذي أشرت إليه بل كثيراً ما كان يعول عليه أن لم يكن هو السائد في تعليمه وارشاده .

منزلة الخلق في الدين :

هو أهم جانب في الإسلام بعد العقيدة والعبادة .

أو هو الدين كله على ما سيأتي في بيان القرآن والخلق .

عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكثر ما يدخل الناس الجنة قال : (تقوى الله وحسن الخلق »(٨).

ومما يؤيد الثاني وهو أن الخلق هو الدين كله قوله صلى الله عليه وسلم : « انما بعثت لأتمم صالح الاخلاق » وفي رواية مكارم الاخلاق »(٩) بدل صالح الاخلاق والمعنى أنه صلى الله عليه وسلم انما أرسل ليكمل الناقص ويجمع المتفرق منها لا لشيء آخر .

وهذا يدل على أن الأديان التي أنزلها الله كلها تعاليم اخلاقية ، وأن الاسلام هو الدين الخاتم والجامع لكل الفضائل .

---

(٦) رواه مسلم .

(٧) رواه الإمام أحمد والدارمي في مسنديها باسناد حسن ذكره الإمام النووي في الأربعين رقم / ٢٧ .

(٨) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح ، سنن الترمذي جـ ٤ حيث رقم / ٢٠٠٤ .

(٩) الحديث رواه البخاري في الأدب ، والبيهقي في الشعب ، والحاكم في المستدرك وصححه وقال ابن عبد البر حديث متصل من وجوه صحاح عن ابى هريرة وغيره ـ رواه الإمام أحمد بلفظ « صالح » بدل « مكارم » عن ابى هريرة ايضا ، وقال الهيثمي رجال أحمد رجال الصحيح أنظر فيض القدير للمناوي ، وتخريج الحافظ العراقي بهامش الاحياء ٢ / ٩٣١ .

أهمية الأخلاق :

هذا ، وللخلق اثار ونتائج من الأهمية بمكان ، انها بالاجمال قاعدة السعادة في الآخرة والأولى ، وليس بالإمكان هنا بيان ذلك تفصيلا فانه شيء يطول ولا يتسع له المقام ، وانما يمكن ان نذكر أمهاتها بإيجاز يدل على المطلوب إن شاء الله بقدر المستطاع ونبدأ بالأخروى منها : ثوابها عند الله :

انها أثقل ما يوضع في ميزان العبد يوم القيامة ، وأعظم ما يقرب من رضوان الله والجنة ويباعد عن النار . قال صلى الله عليه وسلم :

« ما من شيء اثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن ، وإن الله ليبغض الفاحش البذيء »(١٠).

« ان المؤمن ليدرك بحسن الخلق درجة القائم الصائم »(١١).

« ان من احبكم إلى واقربكم منى مجلساً يوم القيامة أحاسنكم اخلاقاً)(١٢).

« ان العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة ، وشرف المنازل وإنه لضعيف العبادة ، وإنه ليبلغ بسوء خلقه أسفل درجة في جهنم »(١٣).

ثمارها في الحياة :

الخلق الفاضل مع ما يصدر عنه من سلوك فاضل وعمل صالح عماد حياة المسلم ولا يتصور أن يسعد ولا أن يصلح حاله ولا حال مجتمعه بغير الخلق ، وفيما يلي أهم التفاصيل :

أولاً : الكمال والسمو :

ينبغي أن نلاحظ من البداية أن الخلق في ذاته ، كمال وزينه لصاحبه أعظم من كل ما يتجمل به الناس عادة من أنواع الزينة الحسية والمعنوية فلا يفتقر معه إلى تاج يعلو رأسه ،

---

(١٠) رواه الترمذي في سننه عن ابى الدرداء ، وقال حديث حسن صحيح سنن الترمذي حـ ٤ حديث رقم / ٢٠٠٢ .

(١١) رواه أبو داود في سننه ، وابن حبان في صحيحه عن عائشة رضى الله عنها ـ حديث حسن ـ أنظر فيض القدير للمناوي حديث رقم / ٢٠٩٨ .

(١٢) رواه الترمذي عن جابر وقال حديث حسن سنن الترمذي حـ ٤ حديث / ٢٠١٨ .

(١٣) رواه الطبراني ورواته ثقاة سوى شيخة المقدام بن داود وقد وثق ـ الترغيب والترهيب للحافظ المنذري ٣/ ٤٠٤ . دار الفكر ـ بيروت .

ولاشارات تزين صدره ، ولا نسب يرفع قدره ، ولا سلطان يعلى مكانه ، ولا مال يبسط نفوذه ، لان شرف النفس والمسلك أكبر من هذا كله ، وقديماً قالوا .

كن ابن من شئت وأكتسب أدباً . . . يغنيك محموده عن النسب ان الإنسان كما فطر على الإعجاب بمناظر الحسن المادي ، والاشمئزاز من مناظر القبح الحسي ، فطر كذلك على الحب والاكبار للخلق الفاضل ، وعلى الكراهية والتحقير للخلق النازل ، حتى لقد ادرك هذا العرب في بداوتهم فقال قائلهم : « ولم أر كالمعروف أما مذاقه فحلو واما وجهه فجميل) ولا يمكن ان يستوى في تقدير الإنسان وضميره عادل وظالم ، ولا صادق وكاذب ، ولا محسن ومسيء ، كما لا يستوى عنده الظلمات والنور ، ولا الظل والحرور وقد نبه القرآن على هذا قال تعالى :

« ولا تستوي الحسنة ولا السيئة أدفع بالتي هي أحسن »[١٤].

« ضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه اينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوى ومن يأمر بالعدل وهو صراط مستقيم »[١٥].

وقد صور لنا القرآن هذا المعنى في مشهد محس لإبرازه لذوى البصائر فقال : « أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أم من يمشي سوياً على صراط مستقيم »[١٦].

ثانياً : القوة والاقتدار :

بالإخلاق يتمكن المرء من مواجهة الشدائد والظروف المختلفة من يسر وعسر ، ومنشط ومكره ومن السيطرة عليها ، ويتمكن من القيام بما يتعلق به من حقوق وواجبات من غير تفريط ولا افراط .

بها يتغلب على كثير من الإزمات ، ويتحامي كثيراً من المشكلات ، ويروض النفوس الشاذة .

أنها تهون على صاحبها كل صعب ، وتذلل كل عسير ، فيظل مستمسكاً بالحق يعلو به على المؤثرات والأحداث يحكمها ولا تحكمه .

فلا تبطره نعمة ، ولا تحطمه بليه .

لا يذل عند الطمع ، ولا يهون عند الفزع .

لا يقصر في المكارم ، ولا تغريه المآثم .

---

(١٤) فصلت : ٣٤ .

(١٥) النحل : ٧٦ .

(١٦) تبارك : ٢٢ .

لا يغيره الثناء ولا يفسده ، ولا يحزنه الذم ولا يغضبه .
أنه راسخ كالجبل ، شديد البأس كالحديد .
ذلك أنه يعرف طريقه وغايته ، وقد أعد نفسه أحسن الاعداد ، وتزود بخير زاد ، ومن أجمع ما قيل في هذا قول الشاعر :

قد عشت في الدهر أطوارا على طرق ∴ شتى وصادفت منه اللين والفظعا
كلا عرفت فلا النعماء تبطرني ∴ ولا تخشعت من لأوائه جزعاً
لا يملأ الأمر صدري قبل وقعته ∴ ولا أضيق به ذرعاً إذا وقعاً

والاخلاق بهذه القوة هي عصب الإنسان الذي يمسكه ويشده أزره في سعيه وفي كل موقف مشهود . وإذا ذكرنا ان الدنيا دار ابتلاء ، كما قال تعالى ونبلوكم بالشر والخير فتنه والينا ترجعون »(١٧) وان حياة الإنسان فيها مشحونة بالتكاليف ، ادركنا انه لا غنى له عن هذه الأخلاق والا تحكمت فيه الغرائز والشهوات ، فأوردته موارد الاثم والهلاك .

ثالثاً : الثبات والاطراد :

من ثمار الخلق الثبات والاستقرار والاطراد في عمل البر وحسن السلوك مع السهولة واليسر ، لان تلك طبيعته وقد قالوا « العادة طبع ثان » والخلق الفاضل أو « الفضيلة » يعرف كما يؤخذ من كلام الامام الغزالي وغيره بأنه « هيئة في النفس راسخة عنها تصدر الأفعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعاً ، يسهوله ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية »(١٨) .

فالخلق أذن بمنزلة جذور راسخة وعميقة في النفس بالنسبة للأفعال المحمودة والأعمال الصالحة ، وهي إنما تصدر عنه كلما وجد داعيها فمن كان خلقه الشجاعة أقدم عند داعى الأقدام ، ومن كان خلقه الكرم بذل إذا حضر داعى البذل ، وهكذا .

ومن هنا كان الثبات والاطراد في أداء الواجبات والقيام بالأعمال المجيدة ومن هنا يصعب جداً تحويل صاحب الفضائل النفسية والانحراف به إلى مزالق الشر والفساد ، وقد يتفضل الله عليه بكمال الرعاية فيدخله في حمايته ويعصمه من السوء كما قال تعالى « أن عبادي ليس لك عليهم سلطان »(١٩) .

وذلك بخلاف من لم يكتسب تلك الفضائل فأنه لا يأمن الزلل والسقوط .

---

(١٧) الانبياء : ٣٥ .
(١٨) أحياء علوم الدين للإمام الغزالي ٣ / ١٤٤٠ .
(١٩) الحجر : ٤٢ .

كما يلاحظ أن الخلق الحسن يسهل على صاحبه فعل الخير ، فيصدر عنه كما قلنا بطريقة انبعاثيه من غير كبير جهد ولا تفكير ولا وقت ، فيوفر كل ذلك ويقوم بصالح الأعمال على وجه ميسر ، كأنه صادر عن طبيعة فطرية .

أما من لم يتأصل في نفسه عادات البر فإنه لا يحظى بذلك ويشعر بمشقة كبرى في أداء الواجبات وفعل الخيرات .

رابعاً : عدة النجاح :

النتيجة الطبيعية أو العادية للسعى الحثيث الذي ينشأ عن الفضائل النفسية هي النجاح بأذن الله ، وتحقيق المصالح المتنوعة ، والأهداف القريبة والبعيدة .

فمن أراد المال والرخاء ووفرة الانتاج فعلية بالخلق .

ومن أراد العلم والمعرفة والنبوغ في ذلك فعليه بالخلق .

ومن أراد المنزلة الكريمة بحق ، فعليه بالخلق .

وهكذا كل المطالب العالية الشريفة .

إنه أعظم عدة للنجاح ، وأنجع وسيلة لبلوغ الآمال والغايات .

وكيف لا ينجح به المرء ، ويصلح به حاله ؟ والخلق قوة وجلد ومثابرة ؟

صلاح امرك للاخلاق مرجعة . . . فقوم النفس بالاخلاق تستقم وكم رأينا من ناس مرضى أو معوقين صنعوا الأعاجيب بقوة العزيمة ومتانة الخلق ، وكم رأينا من آخرين نشأوا في ظروف صعبة كئيبه فلم يستكينوا لها وتغلبوا عليها بقوة ارادتهم ودربه نفوسهم ، وحولوها إلى ظروف مواتيه . وصدق الله العظيم إذ يقول : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »(٢٠).

خامساً : السعادة ورضى الضمير :

الخلق يمنح الإنسان سعادة القلب ، ورضى الضمير ، والسلام النفسي فلا يحس بالقلق والاضطراب ، ولا يشعر بالانقسام ولا الصراع بين عواطفه ودوافعه ، بل يجد نفسه سويا مجتمع القلب والفكر .

وكيف لا يسعد انسان بحيازة الشرف والكمال والنجاح .

---

(٢٠) الرعد : ١١ .

إن الخلق يحمل صاحبه على الوفاء بما لزمه من امانات وحقوق لذا يبيت قرير العين ، راضي النفس .

فضلا عما يجليه عمله من المنافع وجميل الثمرات .

وقد اشار إلى هذا قوله تعالى : « فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب انى لما انزلت إلى من خير فقير »(٢١) .

« يا ايتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية »(٢٢) .

وفي الاثر « من سعادة المرء حسن الخلق » .

سادساً : مصدر بر وهدى :

من آثار الخلق الحسن البر بالناس ونفعهم ، والسعي في مصالحهم ودفع الشر عنهم ، فضلا عن أن صاحبه يسن لهم بسيرته سنة حسنة فالرجل الفاضل كالنحلة حيث وجدت أكلت طيباً ووضعت طيباً ، أو كالشجرة الظليلة المثمرة في الصحراء ، يأوى إليها الناس وقت الهاجرة فيجدون في رحابها الروح والريحان .

إنه يعين الضعيف وذا الحاجة ، ويقرى الضيف ، ويصلح بين الناس ، ويعين على نوائب الحق ، ويرحم اليتيم والأرملة والمسكين وابن السبيل ، ويغيث الملهوف ، وينصر المظلوم ، ويرشد الضال ، ويهدى إلى الصراط المستقيم وهذا بلا شك يحبب الشخص إلى النفوس ، فقد جبلت على حب من أحسن إليها : أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم .. فطالما استعبد الإنسان احسان وان مقابلة السيئة بالحسنة من شأنه أن يطفىء نار العداوة ، وغل الصدور كما قال تعالى : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم »(٢٣) .

أما بالنسبة للخصوم المعاندين ، والأعداء الحاقدين ، فان الخلق يزرع لصاحبه في نفوسهم الهيبة والإكبار .

ولا ننسى أن الخلق سفير الداعية إلى قلوب الناس ، وعنوانه الظاهر أمامهم انهم قد لا يعرفونه في البداية من علمه وعقيدته وسابق فضله ، لأن ذلك قد يكون مغيباً مستوراً

---

(٢١) القصص : ٢٤ .

(٢٢) الفجر : ٢٧ ، ٢٨ .

(٢٣) فصلت : ٣٤ .

عنهم ، وإنما يعرفونه - ويؤثر فيهم - من مسلكه الخلقى وعمله الكريم وقد نبه القرآن إلى هذا فيما حكى عن صاحبى السجن إذ قالا ليوسف عليه السلام « نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين »(٢٤).

وعن هذا الطريق اسلم خلق كثير ، ودخلوا في دين الله أفواجاً ، من مختلف أقطار الأرض .

سابعاً : الألفة والوحدة :

إذا شاع بين الأفراد التزام الخلق الفاضل ، ربط بينهم بأوثق الروابط من الألفة والثقة والتعاون ، فصاروا أمة واحدة ونشأ منهم مجتمع قوى فاضل متماسك كالبنيان متعاطف كالجسد .

كما قال تعالى « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض »(٢٥).

وكما قال صلى الله عليه وسلم : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم ، مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو ، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى »(٢٦).

وبركات هذه الوحدة ، وهذا التماسك شيء عظيم بالغ الأهمية ، ومن ذلك :

- يسر الحياة ، ووفرة الانتاج ، والرخاء الاجتماعي .
- النصر على أعداء الأمة في معركة الصراع بين الحق والباطل .
- القدرة على خدمة الإنسانية ، والإسهام في نفعها وهدايتها إلى المراشد ، كما قال جل شأنه : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله »(٢٧).

« وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً »(٢٨).

أما سوء الخلق وتحكم الأهواء والشهوات ، فأنه يفرق ولا يجمع ، ويمزق المجتمع شر ممزق ، ويؤدي إلى سقوطه وشقائه ، وصدق الله إذ يقول : « قل هو القادر على أن يبعث

---

(٢٤) يوسف : ٣٦ .

(٢٥) التوبة : ٧١ .

(٢٦) رواه مسلم عن النعمان بن بشير - مختصر صحيح مسلم للحافظ المنذري حديث رقم / ١٧٧٤ .

(٢٧) آل عمران : ١١٠ .

(٢٨) البقرة : ١٤٣ .

عليكم عذاباً من فـوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويـذيق بعضكم بأس بعض »[٢٩] .

وما أبلغ الحكمة القائلة : انما الأمم الاخلاق ما بقيت : فأن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا . من أجل ذلك أمرنا أن نلتزم بفضائل الدين ومنهجه الاخلاقي ولا نحيد عنه ، قال تعالى : « وأعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته أخواناً »[٣٠] .

من كل ما سبق يتبين أن الخلق ضرورة حتمية ، اذ لا حياة بدونه ، ولا سعادة بغيره وهو عدة الأمة في أداء رسالتها وإحياء مجدها ، والخلاص من أدوائها ومشكلاتها .

يقول الدكتور عبد الكريم زيدان :[٣١] « للاخلاق أهمية بالغة لما لها من تأثير كبير في سلوك الإنسان وما يصدر عنه ، بل نستطيع أن نقول : أن سلوك الإنسان موافق لما هو مستقر في نفسه من معان وصفات ، وما أصدق كلمة الامام الغزالى اذ يقول في أحياته « فان كل صفة تظهر في القلب يظهر أثرها على الجوارح ، حتى لا تتحرك الا على وفقها لا محالة » فأفعال الإنسان ، إذن موصولة دائما بما في نفسه من معان وصفات ، صلة فروع الشجرة بأصولها المغيبة في التراب . ومعنى ذلك أن صلاح أفعال الإنسان بصلاح أخلاقه لأن الفرع بأصله ، إذا صلح الأصل صلح الفرع ، وإذا فسد الأصل فسد الفرع « والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه والذي خبث لا يخرج الان نكدا »[٣٢] .

ولهذا كان النهج السديد في إصلاح الناس وتقويم سلوكهم ، وتيسير سبل الحياة الطيبة لهم ، أن يبدأ المصلحون بإصلاح النفوس وتزكيتها وغرس معانى الاخلاق الجيدة فيها ، ولهذا أكد الإسلام على صلاح النفوس ، وبين أن تغيير أحوال الناس من سعادة وشقاء . ويسر وعسر ، ورخاء وضيق وطمأننيه وقلق ، وعز وذل ، كل ذلك ونحوه تبع لتغيير ما بأنفسهم من معان وصفات ، قال تعالى : « أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »[٣٣] .

---

(٢٩) الأنعام : ٦٥ .

(٣٠) آل عمران : ١٠٣ .

(٣١) أصول الدعوة للدكتور عبد الكريم زيدان ، الأستاذ بقسم الدين كلية الآداب بجامعة بغداد ص ٧٥ .

(٣٢) الاعراف : ٥٨ .

(٣٣) الرعد : ١١ .

القلب أو (الضمير)

منزلته في القرآن :

هو السلطة الاخلاقية العليا في نظر القرآن .

هو مصدر التوجيه والالزام ، والمراقبة والمحاسبة ، يصلح المرء بصلاحه ويفسد بفساده ، ولذا كان جديرا بكل العناية والرعاية .

وآيات القرآن تدل على ذلك بوضوح قال تعالى :

« يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم »(٣٤) .

« أن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد »(٣٥) .

« هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب »(٣٦) .

وقال سبحانه بشأن الكفار والمنافقين :

« أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور »(٣٧) .

« في قلوبهم مرض فزاد هم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون »(٣٨) .

ولقد جاءت السنة تؤكد ما جاء به القرآن في هذا الشأن ، وتزيده وضوحاً وبياناً ، قال صلى الله عليه وسلم : « الا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، الا وهي القلب »(٣٩) .

وعن وابصة بن معبد رضى الله عنه قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : جئت تسأل عن البر ؟ قلت : نعم ، قال : استفت قلبك ، البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه النفس واطمأن إليه القلب ، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر ، وأن أفتاك الناس وأفتوك »(٤٠) .

---

(٣٤) الشعراء : ٨٨ ، ٨٩ .

(٣٥) ق : ٣٧ .

(٣٦) ق : ٣٢ ، ٣٣ .

(٣٧) الحج : ٤٦ .

(٣٨) البقرة : ١٠ .

(٣٩) رواه الإمام مسلم من حديث النعمان بن بشير . مختصر صحيح مسلم للمنذري حديث رقم/٩٥٦ .

(٤٠) حديث حسن رواه أحمد والدارمي ، كما قال الإمام النووي في الأربعين . حديث رقم / ٢٧ .

يقول الدكتور دراز :(٤١) « القرآن يقرر في أصرح عبارة أن النفوس كلها قد منحت بفطرتها قوة التمييز بين الخير والشراء ، والعدل والظلم ، والتقوى والفجور : « ونفس وما سواها فالهمها فجورها وتقواها »(٤٢)، بل الإنسان على نفسه بصيره ولو ألقى معاذيره »(٤٣)، ثم لا يكتفي بأن يجعل هذه البصيرة قوة كاشفة معرفة ، بل يجعلها آمرة ناهية وينعى على من يخالفها بأنه من أهل الضلال والطغيان : أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون »(٤٤). هذه القضية المنفصلة لا تدع مجالا للشك في وجوب الخضوع لأوامر الاحلام والعقول ، متى اتضح أمامها طريق الحق والخير وكذلك يقول صاحب الرسالة الباهرة صلوات الله عليه : « إذا أراد الله بعبد خيراً جعل له واعظاً من نفسه يأمره وينهاه »(٤٥).

هذه القوة الفطرية الهادية الحاكمة هي التي سماها الامام الغزالى (نور الحق)(٤٦) وسماها ابن مسكوية « النفس العاقلة »(٤٧) وهي التي سماها علماء الأخلاق المحدثون « الضمير »(٤٨) كما يسميها البعض « الوجدان »(٤٩) وهي التي سماها « القلب » الكتاب والسنة كما تقدم .

وظائفه :

وقد يكون من المهم هنا أن نوجز بيان وظائفه وعلاقته بالسلوك .

إن الإنسان يحس بوضوح لا لبس فيه ، ولا شك معه بهذه القوة الأخلاقية وبعملها في حياته اليومية .

---

(٤١) دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية والدولية للدكتور محمد عبد الله دراز ص ١١٥ . دار القلم ـ الكويت ١٩٨٠ .

(٤٢) الشمس : ٧ ، ٨ .

(٤٣) القيامة : ١٤ ، ١٥ .

(٤٤) الطور : ٣٢ .

(٤٥) رواه الديلمى في مسند الفردوس عن أم سلمة ، قال الحافظ العراقي وغيره إسناده جيد . فيض القدير للمناوي ١ / ٢٥٦ . دار المعرفة ـ بيروت .

(٤٦) الاحياء للإمام الغزالي كتاب المراقبة والمحاسبة ٦/٢٧٥٩ .

(٤٧) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق لابن مسكويه ص ٦٤ .

(٤٨) تأملات في فلسفة الأخلاق للشيخ منصور رجب الأستاذ بكلية أصول الدين ص ٢٢٦ .

(٤٩) الأخلاق للأستاذ أحمد أمين ص ٦٨ .

فهي تسبق العمل وتقارنه وتلحقه ، فتسبقه بالارشاد إلى فعل الخير والتحذير من فعل الشر ، وتقارنه بالتشجيع على إتمام العمل الصالح والتثبيط عن العمل السيء ، وتلحقه بالرضا والسرور عند الطاعة ، والإحساس بالألم والمرارة عند المعصية . وبعبارة موجزة انه السلطة الأخلاقية في الإنسان التي تنهض بالمهات الثلاث : فتقوم أولا بالإلزام والتكليف ، وتباشر ثانياً : الحكم والقضاء وتحقق ثالثاً الجزاء من ثواب وعقاب .

يقول الأستاذ أحمد أمين :(٥٠) « يلاحظ الإنسان أن في أعماق نفسه قوة تحذره من فعل الشر إذا أغرى به ، وتحاول أن تصده عن فعله ، فإذا هو أصر على عمله وأخذ يفعل أحس بعدم أرتياح أثناء الفعل لعصيانه تلك القوة ، حتى إذا أتم العمل أخذت هذه القوة توبخه على الإتيان به ، وأخذ يندم على ما فعل .

كذلك يحس بأن هذه القوة تأمره بفعل الواجب ، فإذا بدأ في عمله شجعته على الاستمرار فيه ، فإذا انتهى منه شعر بارتياح وسرور ، وبرفعة نفسه وعظمتها .

هذه القوة الآمرة الناهية تسمى « الوجدان » وهي كما رأيت تسبق العمل وتقارنه وتلحقه ، فتسبقه بالارشاد إلى عمل الواجب والتحذير من المعصية ، وتقارنه بالتشجيع على اتمام العمل الصالح ، والكف عن العمل السيء ، وتلحقه بالارتياح والسرور عند الطاعة ، والاحساس بالألم والوخز عند العصيان » .

الضمير والأوامر الالهية :

وهنا أمر له أهميته هو أن الضمير هو الذي يحول الأوامر الإلهية إلى أوامر ذاتية أخلاقية ، وفي هذا يقول الدكتور دراز :(٥١) « إن الشرع لا يزال يستند إليه عند مطالبته للمؤمنين بأداء واجباتهم الشرعية لا باعتبار أنها أوامر الهية فحسب بل باعتبار أنها أصبحت أوامر أخلاقية بعد أن سبق تعهدهم بها تعهداً كلياً عاماً ، بمقتضى عقد الإيمان الذي ينطوي على التزام السمع والطاعة ، الا ترى إلى قوله سبحانه : « واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا »(٥٢)، « وقد أخذ ميثاقكم أن كنتم مؤمنين »(٥٣) .

---

(٥٠) كتاب الأخلاق للأستاذ أحمد أمين ص ٦٨ .

(٥١) دراسات إسلامية للدكتور محمد عبد الله دراز ص ١١٧ .

(٥٢) المائدة : ٧ .

(٥٣) الحديد : ٨ .

ثم يقول(٥٤) : « ان الإسلام لا يطلب ولا يرضى أن تنفذ أوامره تنفيذاً آليا خضوعاً لصولة حكمة ، بل لا بد قبل كل شيء ، أن تسرى أوامره إلى أعماق الضمير حتى يتشر بها القلب ، ثم تفيض عنه بعد أن تكون قد تحولت فيه إلى أوامر ذاتيه انبعاثية . . ذلك أن أول خطوة في أمتثال الواجب هي الإيمان بوجوبه وعدالته ، والخطوة التي تليها هي أن يحمل هذا الإلزام الى النفس على كف الضمير مشفوعاً بصوت منبعث من أعماقه ، يناديها : « أيتها النفس ان الله يأمرك أن تفعلي وأنا آمرك ان تطيعي أمره ، فإنه حق وعدل ، وانه لا خيرة لك في رده » فان لم ينبعث من الأعماق هذا التبليغ ، ولم يرتفع فيها هذا الصوت الداخلي ترديداً لصدى ذلك الصوت السماوي ، كان العمل كله هباء عند الله ، وفي نظر قانون الاخلاق . القلب أو (الضمير) إذا هو بريد الشرع الذي لا سبيل إلى الامتثال الا عن طريقه ، وكفى بهذا رفعاً لمكانته . . » .

علاقته بالسلوك :

أما علاقته بالسلوك فقد علم أن القلب إذا صلح كان مصدر السلوك الحسن القويم ، وإذا فسد كان مصدر السلوك المعوج السقيم .

وكما تثبت هذا نصوص الشريعة ، يؤيده واقع الحياة .

ولذا كان من الضروري البدء قبل كل شيء بتربية قلوب الناس وضمائرهم ليظفروا بالحياة الطيبة والنعيم المقيم .

وهذا ما صنعه رسول الله صلى الله عليه وسلم بأصحابه ، فكانوا خير مثل لخير أمة كما قال تبارك وتعالى : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلا من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فأزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً »(٥٥) .

تربية القلب أو الضمير :

وما دام القلب أو الضمير بهذه المنزلة الرفيعة ، وهو ـ كما قلنا ـ السلطة الاخلاقية العليا ، فمن الواجب الذي لا مناص منه ، تربيته وتزكيته والأخذ بالوسائل التي ترهف شعوره ، وتدعم يقظته وسلطانه .

---

(٥٤) المرجع نفسه .

(٥٥) الفتح : ٢٩ .

وأهم ركائز هذه التزكية : الإيمان والعبادة .

أما الإيمان فهو أعظم مدد لحياة القلب وقوته ، فهو الذي يعطيه الطاقة المحركة والنور الساطع ، فيجعله أقوى بصيرة وأشد إلزاما .

ذلك أن القلب هو الوعاء الذي تصب فيه كل المشاعر والبواعث الإيمانية القدسية فتحدث به هذا الأثر الفعال ، فالوجدان إنما يأمر باتباع ما يعتقده الإنسان حقاً(٥٦)، ومعنى هذا أن الوجدان (الضمير) يوافق العقيدة ويتبعها ، ويأمر بما تأمر به ، ويزجر عما تنتهي عنه فهو تابع لها ويقظته من آثارها ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن »(٥٧) .

وفي مقدمة العقائد التي تصلح القلب : الإيمان بالله وعظمته ، والإيمان باليوم الآخر وجزائه والإيمان بفضله تعالى وانعامه ، فأن الأول يدعو إلى أمتثال أمره حباً وتعظيماً والثاني يدعو إلى تقواه خوفاً وطعماً ، والثالث يدعو إلى طاعته شكراً وحياء .

إن المؤمن يعتقد أن الله معه حيث كان لا تخفى عليه خافية ولا يغيب عنه سر ولا علانية ، ولذا يراقبه في كل أحواله ، وجميع حركاته وسكناته .

والقرآن يقرر في وضوح العلاقة بين الإيمان والاستقامة وحياة الضمير يقول تعالى : « قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون والذي هم لفروجهم حافظون الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فأنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون الذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون »(٥٨) .

كما أنه يقرر العلاقة بين فراغ القلب من الإيمان وبين الفجور وموت الضمير فيقول : « أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين »(٥٩) .

---

(٥٦) كتاب الأخلاق لأحمد أمين ص ٧١ .

(٥٧) قال العلامة المناوي : رواه الطبراني عن ابى امامة باللفظ المذكور ، قال الهيثمي ورجاله رجال الصحيح ، وخرجه النسائي في الكبرى باللفظ المذكور عن عمر رضى الله عنه قال الحافظ العراقي في أماليه صحيح على شرط الشيخين ـ فيض القدير للمحدث العلامة عبد الرؤف المناوي ٦ /١٥٢ وما بعدها . دار المعرفة ـ بيروت .

(٥٨) المؤمنون : ١ ـ ٨ .

(٥٩) الماعون : ١ ـ ٣ .

أما العبادات والشعائر الأصلية من صلاة وزكاة ، وصيام وحج ، وتلاوة وذكر ودعاء فأنها تؤكد أثر الإيمان في إصلاح الضمير وتزكيته ، وقد بين القرآن أثرها في الخلق والضمير بمثل قوله :

« أن الانسان خلق هلوعاً اذا أمسه الشر جزوعا واذا أمسه الخير منوعا الا المصلين »(٦٠).

« أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر »(٦١).

« خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها »(٦٢).

« ويطعمون الطعام على حبه مسكنيا ويتيما واسيرا أنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا انا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطرا »(٦٣).

يقول الشيخ شلتوت :(٦٤) « أن الله سبحانه لم يجعل الإيمان به أساس دينه ، ولم يجعل العبادات أركانا له ، الا لما تحدثه من أثر طيب في النفوس يكون عنصرا لتكون الخلق الفاضل » .

إن هذه العبادات تصل المرء بربه ، وتعمل على إحياء قلبه ، فتذكره كلما نسى وتقويه كلما ضعف ، كما تدل الآيات السابقة أما ما سبق ذكره في « أهمية الاخلاق » فانه يتبع الجزاء في العاجل والآجل .

ولا شيء يفسد القلب والضمير كالمعاصي واقتراف السيئات ـ فضلا عن الكفر والجحود ـ فانها سموم تمرضه وتقضي عليه بملازمتها من غير توبة ، قال صلى الله عليه وسلم : « إن العبد إذا أذنب ذنبا كانت نكتة سوداء في قلبه فان تاب منها صقل قلبه ، وإن زاد زادت فذلك قول الله تعالى : « كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون »(٦٥).

---

(٦٠) المعارج : ١٩ ـ ٢٢ .

(٦١) العنكبوت : ٤٥ .

(٦٢) التوبة : ١٠٣ .

(٦٣) الدهر : ٨ ـ ١٠ .

(٦٤) الإسلام عقيدة وشريعة للشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر رحمه الله ص ٤٦٤ .

(٦٥) رواه ابن جرير والترمذي ، والنسائي وابن ماجه من طرق عن محمد ابن عجلان ، عن القعقاع بن حكيم ، عن ابى صالح ، عن ابى هريرة ، وقال الترمذي : حسن صحيح . انظر الترغيب والترهيب للمنذري ٩٢/٤ دار الفكر ـ بيروت .

حقيقة الخلق :

الخلق في اللغة معناه : الطبع والسجية والدين والمروءة .

جاء في القاموس :(٦٦) الخلق بالضم وبضمتين : السجية والطبع ، والمرؤة والدين .

وجاء في لسان العرب :(٦٧) « الخلق بضم اللام وسكونها : هو الدين والطبع والسجية ، وحقيقته أنه لصورة الإنسان الباطنة ، وهي نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بمنزلة الخَلْق لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها ولهما أوصاف حسنة وقبيحة » .

أما في الاصطلاح فقد عرفه بعض الأخلاقيين بأنه « عادة الإرادة »(٦٨) ومعنى هذا أن الخلق عبارة عن الميل الراسخ الذي تكتسبه الارادة نتيجة لممارسة فعل معين ، وتكراره مرات كافية بحيث يصدر مثل هذا العمل عن الميل المذكور بسهولة ويسر كلما وجد داعيه ، كمن تأصلت في ارادته عادة الكرم والميل إليه ، فانه يبذل كلما وجدت الظروف الداعية للبذل ، وهكذا فهذه العادة والميل الراسخ تسمى خلقا .

وعرفه بعضهم بأنه : « تغلب ميل من الميول على غيره باستمرار »(٦٩) .

وهذا التعريف الثاني بمعنى التعريف الأول ، قال الدكتور محمد يوسف موسى فى المقارنة بين التعريفين المذكورين :(٧٠) « . . كما يتضح أيضا التعريف الثاني الذي ذكرناه سابقا ، وهو « تغلب ميل من الميول على الإنسان بأستمرار ، فإن هذا الميل الذي صار رغبة فإرادة هو الهيئة النفسية ، وتغلبه بأستمرار معناه أنه صار عادة وخلقا » . هذا وللفلاسفة الاسلاميين تعاريف آخرى للخلق :

قال ابن مسكوية(٧١) : « الخلق : حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا روية » .

---

(٦٦) القاموس المحيط للفيروز أبادي ٣/٢٣٦ .

(٦٧) لسان العرب لابن منظور ١ / ٨٨٩ .

(٦٨) مذكرات علم الأخلاق للدكتور محمد يوسف موسى ص ٥٠ ، الأخلاق للأستاذ أحمد أمين ص ٦٣ . تأملات في فلسفة الأخلاق للشيخ منصور رجب ص ٨٨ ، مقدمة في علم الأخلاق للدكتور محمود حمدى زقزوق ص ٣١ .

(٦٩) المراجع السابقة بصفحاتها ومقدمة في علم الأخلاق للدكتور محمود زقزوق ص ٣٠ .

(٧٠) مذكرات في علم الأخلاق للدكتور محمد يوسف موسى ص٥٣ .

(٧١) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق لابن مسكوية ص ٤١ .

وقد زاده الامام الغزالي إيضاحا فقال :(٧٢) « الخلق والخلق عبارتان مستعملتان معا ، يقال فلان حسن الخلق والخلق ، أي حسن الباطن والظاهر ، فيراد بـالخلْق الصورة الظاهرة ، ويراد بالخلق الصورة الباطنة .

فالخلق عبارة عن هيئة في النفس راسخة ، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية .

فان كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا سميت تلك الهيئة خلقا حسنا ، وان كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقا سيئا » .

وقد شرح رحمه الله التعريف السابق فقال :(٧٣) « وانما قلنا إنها هيئة راسخة لأن من يصدر عنه بذل المال على الندور لحاجة عارضه لا يقال خلقه السخاء ما لم يثبت ذلك في نفسه ثبوت رسوخ ، وإنما اشترطنا أن تصدر منه الأفعال بسهولة من غير روية ، لان من تكلف بذل المال ، أو السكوت عند الغضب بجهد وروية ، لا يقال خلقه السخاء والحلم .

فههنا أربعة أمور :

أحدها : فعل الجميل والقبيح ، والثاني : القدرة عليهما ، والثالث المعرفة بهما ، والرابع : هيئة للنفس بها تميل إلى أحد الجانبين ، وتيسر عليها أحد الأمرين : إما الحسن وإما القبيح .

وليس الخلق عبارة عن الفعل ، فرب شخص خلقه السخاء ولا يبذل إما لفقد المال أو لمانع ، وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل أما لباعث أو لرياء .

وليس هو عبارة عن القوة ، لان نسبة القوة إلى الإمساك والإعطاء ، بل إلى الضدين واحدة ، وكل إنسان خلق بالفطرة قادرا على الإعطاء والإمساك ، وذلك لا يوجب خلق البخل ولا خلق السخاء .

وليس هو عبارة عن المعرفة ، فان المعرفة تتعلق بالجميل والقبيح جميعا على وجه واحد ، بل هو عبارة عن المعنى الرابع وهو الهيئة التي بها تستعد النفس لان يصدر عنها الإمساك أو البذل ، فالخلق إذن عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة » ١ هـ .

---

(٧٢) أحياء علوم الدين للإمام الغزالي ٣ / ١٤٤٠ ـ بتصرف .

(٧٣) أحياء علوم الدين للإمام الغزالي ٣ / ١٤٤١ .

ورغم ايضاح الامام الغزالي لتعريفه ، وهو شامل لتعريف ابن مسكوية فلا زال بحاجة إلى مزيد من الإيضاح والتحديد .

ذلك أن تلك « الهيئة الراسخة » الواردة بالتعريف ليست صفة لكل جوانب النفس ، وإنما هي صفة لجانب واحد هو جانب القصد والارادة .

وبهذا التحديد يتفق تعريف الغزالي ـ وكذا تعريف ابن مسكوية ـ مع التعريفين السابقين ، إذ يكون المراد من الهيئة الراسخة في الإرادة ، هو نفس « عادة الارادة » وهو نفس تغلب ميل من الميول على الإنسان باستمرار ولذا قال الدكتور محمد يوسف موسى بعد أن ذكر تعريف كل من ابن مسكوية والغزالى وغيرهما :(٧٤) « وهذه التعاريف وان اختلفت الفاظها وعباراتها متفقة في معانيها ومدلولاتها ، ولا تختلف جميعها عن التعريفين السابقين أول البحث »(٧٥) .

بقى أمر آخر وهو تحديد نوع الأعمال الإرادية التي تتعلق بها وتصدرها هذه الهيئة الارادية الراسخة ، فليست كل عادة أو هيئة إرادية تتعلق بأي نوع من الأعمال الاختيارية تسمى خلقا .

فالعادة أو الهيئة الارادية التي تتعلق بأعمال فنية مثلا كالرسم والموسيقى وهندسة البناء ، والبلاغة والبيان لا تسمى خلقا ، وانما الذي يسمى خلقا هو تلك العادة أو الاستعداد الارادى الذي يصدر أعمالا اختيارية توصف بأنها خير أو شر .

ومن هنا كان القيدان المذكوران جديرين بالاعتبار في تعريف الخلق .

وقد نبه على هذا الدكتور دراز بعد أن ذكر تعريف ابن مسكوية وتعريف العزالي ، ثم استخلص في النهاية التعريف الحقيقي التام فقال :(٧٦) « الخلق اذن هيئة أو صفة للنفس ، غير ان للنفس قوى مختلفة ووظائف متنوعة ، فهناك ملكات الإدراك والتفكير والحكم ، والتخيل والتذكر ، وهناك الوجدانات والانفعالات ، وهناك الغرائز والنزاعات ، فاذا كانت هذه القوى النفسية كلها تصدر عنها اثارها في سهولة ويسر ، هل يسوغ لنا أن نسمى شيئا منها خلقا ؟ . . كلا .

نحن بحاجة أذن إلى مزيد ايضاح وتحديد ، تتميز به حقيقة المقصود من هذه التسمية ،

---

(٧٤) مذكرات في علم الأخلاق للدكتور محمد يوسف موسى ص ٥٥ .

(٧٥) وهما « الخلق عادة الإرادة » والخلق : تغلب ميل من الميول على غيره باستمرار .

(٧٦) دراسات إسلامية للدكتور محمد عبد الله دراز ص ٨٧ .

وينجلي بها الابهام الذي تنطوي عليه التعريفات السابقة .

ونبادر فنقول أن الخلق ليس صفة للنفس في جملتها ، ولكن في جانب معين من جوانبها ، وليس هذا الجانب هو جانب العقل والمعرفة ، ولا جانب الشعور والعاطفة ، وانما هو جانب القصد والارادة .

ونضيف إلى هذا التقييد تقييدا آخر فنقول : أن الخلق يتعلق بنوع خاص من الأهداف الارادية ، وهي تلك الأهداف التي ينشأ عن اختيارها وصف يعود على النفس بانها خيرة أو شريرة .

من هاتين الخاصتين نستطيع أن ننظم التعريف التالي : « الخلق هو قوة راسخة في الارادة تنزع بها إلى اختيار ما هو خير وصلاح (إن كان الخلق حميدا) أو إلى اختيار ما هو شر وجور (أن كان الخلق ذميما) هكذا تتميز الحقيقة الخلقية عما عداها من الصفات النفسية .

الا ترى أن جودة الذاكرة أو ضعفها ، وسلامة الذوق أو سقمه ، وبراعة الخيال أو تبذله ، وحدة الذهن أو تبلده ، لا مدخل لها في موازين الاخلاق ولا يسري منها الحكم على صاحبها بأنه بر أو فاجر ، تقى أو أثم ؟(٧٧) .

ثم الا ترى أن من الأعمال الارادية نفسها طائفة يستوى فعلها وتركها فتدخل بذلك في نطاق المباحات ، بحيث لا يترتب على فعلها مدح ولا ذم ، ولا يقال لصاحبها انه أحسن أو أساء ، فهي خارجة أيضا عن موضوع البحث وكذلك الأعمال الارادية التي يترتب عليها مدح أو ذم بمعناهما الأدبي أو الفني كإجادة البيان واتقان التصوير أو أساءتها فهنالك يكون المدح والقدح ، والإحسان والإساءة أحكاما تشابه في صورتها الأحكام الأخلاقية ، ولكنها في المعنى ليست منها بسبيل ، لان الذي لا يحسن التعبير أو التصوير لا يقال إنه آثم أو شرير » .

الفرق بين الطبع والسجية والخلق والعادة :

معرفة ذلك لا تخلو من فائدة ، ونوع تمييز بين هذه الحقائق وقد تعرض لهذا الراغب الاصفهاني ، وخلاصة القول :(٧٨) أن الطبع أصله من طبع السيف ، وهو اتخاذ الصورة المخصوصة في الحديد وهو أسم للقوة التي لا سبيل إلى تغييرها .

---

(٧٧) نعم إذا استعملت هذه الملكات قصد أو عمدا ، بنية اصلاح أو فساد كان هذا الاستعمال نفسه داخلا تحت سلطان القانون الأخلاقي ، من حيث هو عمل الإرادة لا من وجه آخر المرجع نفسه ص ٨٨ .

(٧٨) الذريعة إلى مكارم الشريعة للراغب الاصفهاني ص ٤٩ ـ بتصرف .

والسجية : أسم لما سجى عليه الإنسان من قولهم عين ساجية ، أي فاترة خلقه ، وأكثر ما يستعمل ذلك فيما لا يمكن تغييره .

وأما الخلق ففي الأصل كالخلق كقولهم الشرب والشرب ، لكن الخلق يقال في القوة المدركة بالبصيرة ، والخلق في الهيئات والأشكال ، والصورة المدركة بالبصر وجعل الخلق تارة اسما للقوة الغريزية ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : « فرغ الله من الخلق والخلق والرزق والاجل » .

وتارة يجعل أسما للحالة المكتسبة التي يصير بها الإنسان خليقا أن يفعل شيئا دون شيء ، كمن هو خليق بالغضب لحدة مزاجه .

ويجعل الخلق تارة من الخلاقة وهي الملاسة فكأنه اسم لما مرن عليه الإنسان من قواة بالعادة ، وقد روى أفضل الأفعال الخلق الحسن ، وروى ما أعطى الله أفضل من خلق حسن ، فجعل الخلق مرة للهيئة الموجودة في النفس التي يصدر عنها الفعل بلا فكر ، وجعل مرة اسما للفعل الصادر عنه بأسمه وعلى ذلك اسماء أنواعها : نحو العفة والعدل والشجاعة فان ذلك يقال للهيئة ، وللفعل جميعا .

وربما سمى الهيئة باسم والفعل الصادر عنها باسم كالسخاء والجود فان السخاء اسم للهيئة التي عليها الإنسان ، والجود اسم للفعل الصادر عنها وأن كان قد يسمى كل واحد بأسم الآخر .

وأما العادة فاسم لتكرر الفعل ، أو الأفعال من عاد يعود ، وبها يكمل الخلق ، وليس للعادة فعل الا تسهيل خروج ما هو بالقوة في الإنسان إلى الفعل ، وربما يقوى العادة قوة محكمة حتى تعد سجية ، وبهذا النظر قيل : العادة طبيعة ثانية .

الفرق بين الخلق والسلوك :

السلوك : هو أعمال الإنسان الارادية المتجهة نحو غاية معينة مقصودة »(٧٩) فالسلوك اذن هو صورة فعل الإنسان الظاهرة ، أما الاخلاق فهي - كما تقدم - الصورة الباطنة أي الهيئة الكامنة في النفس .

وإذا كان الأمر كذلك فما العلاقة بينهما ؟ والجواب أن العلاقة بينهما التلازم(٨٠) ما لم توجد أسباب وظروف مانعة .

---

(٧٩) تأملات في فلسفة الأخلاق للشيخ منصور رجب ص ١٨٠ .

(٨٠) مذكرات علم الأخلاق للأستاذ محمد يوسف موسى ص ٩٥ .

فنحن نستطيع أن نتبأ غالبا بأعمال المرء متى علمنا خلقه ، كما نستطيع أن نعرف أخلاقه من أعماله إذا تكررت بصورة انبعاثية على نحو معين(٨١) .

وكما يتوقف سلوك الإنسان على خلقه وعلى البواعث والأسباب التي تقتضي ظهوره أو عدم ظهوره ، يتوقف أيضا على الظروف والملابسات التي تحيط به من صحة ومرض ، وغنى وفقر وغير ذلك ، فالكريم الذي لا يجد ما ينفقه لا نحكم عليه بالبخل لعدم انفاقه ، والشره الذي لا يجد ما يتناوله لا نحكم له بالعفة حتى تتهيأ الملابسات التي تبدي لنا كامن سجيته وشيمته(٨٢) .

الفضيلة :

الفضيلة من حيث مدلولها اللفظي تعنى الفضل والزيادة . قال الجوهري :(٨٣) « الفضل والفضيلة ، خلاف النقص والنقيصة » . وقال صاحب القاموس :(٨٤) « الفضل ضد النقص ، والفضيلة الدرجة الرفيعة في الفضل » .

أما في الاصطلاح فقد تضمنت كل تعريفات الخلق السابقة بيان قسميه الفضيلة والرذيلة . وقد صرح بتقسيم الخلق اليهما تعريف الإمام الغزالي ، والتعريف المحقق للدكتور دراز :

قال الإمام الغزالي :(٨٥) « الخلق عبارة عن هيئة في النفس راسخة عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر ، من غير حاجة إلى فكر وروية » .

فان كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا ، سميت تلك الهيئة خلقا حسنا ، وأن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقا سيئا » .

وما سماه الغزالي في كلامه خلقا حسنا هو الفضيلة ، وما سماه خلقا سيئا هو الرذيلة ، فتكون الفضيلة بناء على هذا : هيئة في النفس راسخة عنها تصدر الأفعال الجميلة المحمودة

---

(٨١) مذكرات علم الأخلاق للأستاذ محمد يوسف موسى ص٥٩ ، دراسات إسلامية للدكتور محمد عبد الله دراز ص٨٩ .

(٨٢) مذكرات علم الأخلاق للأستاذ محمد يوسف موسى ص ٩٦ ، دراسات إسلامية للدكتور محمد عبد الله دراز ص ٨٩ .

(٨٣) الصحاح في اللغة والعلوم ، تجديد صحاح العلامة الجوهري ٢ / ٢٤٧ . ومثل هذا جاء في لسان العرب لابن منظور ٢ / ١١٠٥ .

(٨٤) القاموس المحيط للفيروز ابادي ٤ / ٣١ .

(٨٥) أحياء علوم الدين للإمام الغزالي ٣ / ١٤٤٠ .

عقلا وشرعا ، بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية ـ ومن ذلك يعرف تعريف الرذيلة .

وقد عرف الدكتور دراز الخلق بقوله :(٨٦) « الخلق : هو قوة راسخة في الإرادة تنزع بها إلى اختيار ما هو خير وصلاح (إن كان الخلق حميدا) ، أو إلى اختيار ما هو شر وجور (إن كان الخلق ذميما) .

والخلق الحميد هنا هو الفضيلة ، والخلق الذميم هو الرذيلة . فتكون الفضيلة بناء عليه : قوة راسخة في الإرادة تنزع بها إلى اختيار ما هو خير وصلاح ، ومن هذا يعرف الرذيلة .

وليس من قصدنا هنا أن نبحث الرذيلة ، وانما نقصد إلى بحث الفضيلة لانها موضوعنا والمطلوب الأسمى .

وقد تكلم الأستاذ أحمد أمين في معنى الفضيلة فزادها وضوحا وبساطة ، وفرق بينها وبين الواجب وذكر أنها كما تطلق على الهيئة النفسية تطلق على العمل الفاضل العظيم وشرح كل ذلك بكلام جيد موجز فقال :(٨٧) « الفضيلة : هي الخلق الطيب ، وقد قدمنا أن الخلق هو عادة الإرادة ، فإذا اعتادت الإرادة شيئا طيبا سميت هذه الصفة فضيلة ، والانسان الفاضل هو ذو الخلق الطيب الذي اعتاد أن يختار وأن يعمل وفق ما تأمر به الاخلاق .

وبذلك يكون الفرق بين الفضيلة والواجب واضحا ، فالفضيلة صفة نفسية والواجب عمل خارجى ، وعلى هذا يقال : فلان أدى الواجب ، ولا يقال : أدى الفضيلة بل حاز الفضيلة .

وقد تطلق الفضيلة على العمل نفسه فيقال : « فضائل الأعمال » وليس يعني بها كل عمل أخلاقي ، بل الأعمال العظيمة التي يستحق فاعلها الثناء الجزيل ، فلا نسمي دفع ثمن ما اشترى فضيلة ، وإنما نسمي الإتيان بالعمل الكبير مع تحمل المشاق في سبيله فضيلة ، ويشهد لهذا المعنى اشتقاق الكلمة نفسها ، فإنها مأخوذة من الفضل وهو الزيادة ـ وعلى هذا المعنى تكون « الفضيلة » أخص من « الواجب » .

أنواع الفضيلة :

ويهمنا هنا بيان أنواع الفضيلة ، إن ميزان القرآن وتعاليم الإسلام في تقدير الفضائل وأعمال الناس ، جد حساس ودقيق ، فإنه ـ كما هو معلوم ـ لا يقدر الأعمال بصورها ومظاهرها ،

---

(٨٦) دراسات إسلامية للدكتور محمد عبد الله دراز ص ٨٨ .

(٨٧) الأخلاق للأستاذ أحمد أمين ص ١٩١ .

بل بما يكتنفها ويمدها من مشاعر وبواعث ، وبما ترتبط به من مقاصد وغايات شريفة أو خسيسة ويعطى كل خلق وتصرف قيمته الحقيقية لا يظلم مثقال ذرة ومن هنا كانت الفضيلة في نظره نوعان :

الأدنى : هو الفضيلة الإنسانية :

وهي التي تقوم على مشاعر وبواعث إنسانية بحتة من رقة الطبع وشرف النفس والرغبة في البر ، والنفور من الشر ، والحياء من القبيح ، دون نظر أو تعلق برضوان الله وثوابه والنجاة من عقابه ، كمن عادته أن يؤدى ما عليه تذمما وكراهية للظلم ، واستهجانا لمقابلة الحسنة بالسيئة ، وكمن أعتاد أن يعين الضعيف والمصاب بدافع الشفقة والرحمة الفطرية ، أو رعاية للرحم الإنساني .

ويدخل في هذا فضائل الاخلاق الفلسفية ، وهي عادات فعل الخير للخير فحسب هذا النوع من الاخلاق وما يثمره من أعمال شيء حسن في ذاته بلا ريب ، بيد أنه غير موصول بالله ، ورغم ذلك فان الله لا يهمله ولا يضيعه ، إذ لا يستوي عنده تعالى ظلم وعدل ، ولا إساءة وإحسان . نعم إذا فعلها كافر لا تدخله الجنة كمن ارتكب الخيانة العظمى في حق وطنه وأمته ، فإنه لا ينقذه من الإعدام أن كان محسنا لجيرانه ، ولكن الله تعالى يكافيء عليها بما دون ذلك ، مصداق قوله تعالى : « أن الله لا يظلم مثقال ذرة » .

فيعطيه من متاع الدنيا وإن بقى له شيء خفف عنه من عذاب النار في الآخرة . عن حكيم ابن حزام أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، أي رسول الله أرأيت أمورا كنت أتحنث بها في الجاهلية من صدقة أو عتاقة أو صلة رحم أفيها أجر ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أسلمت على ما أسلفت من خير »[٨٨] فهنا وصفها رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنها خير .

وعن أنس بن مالك انه حدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الكافر إذا عمل حسنة أطعم بها طعمة من الدنيا ، وأما المؤمن فأن الله يدخر له حسناته في الآخرة ، ويعقبه رزقا في الدنيا على طاعته »([٨٩]) .

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى : (أن الله لا يظلم مثقال ذرة وأن تلك حسنة يضاعفها)[٩٠] : « فأما المشرك فيخفف عنه العذاب يوم القيامة ، ولا يخرج من النار

---

[٨٨] (٨٨) رواه . مسلم . مختصر صحيح مسلم للمنذري حديث / ٧٠ .

[٨٩] (٨٩) صحيح مسلم ٢ / ٥٢٤ دار احياء الكتب العربية ـ القاهرة .

[٩٠] (٩٠) النساء : ٤٠ .

أبدا ، وقد يستدل له بالحديث الصحيح أن العباس قال يا رسول الله إن عمك أبا طالب كان يحوطك وينصرك فهل نفعته بشيء ؟ قال : نعم هو في ضحضاح من نار ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار » . وقد يكون هذا خاصا بأبي طالب من دون الكفار »[٩١] ١ هـ .

وقال الإمام النووي :[٩٢] « وقد قالوا في الكافر إذا كان يفعل الخير فإنه يخفف عنه به » . وقال رحمه الله :[٩٣] « قال البيهقي وقد يكون حديث ابن جدعان[٩٤] ، وما ورد من الآيات والأخبار في بطلان خيرات الكافر إذا مات على الكفر ، ورد في أنه لا يكون لها موقع التخلص من النار ، وإدخال الجنة ، ولكن يخفف عنه من عذابه الذي يستوجبه على جنابات أرتكبها سوى الكفر بما فعل من الخيرات » . ١ هـ .

الأعلى : هو الفضيلة الربانية :

نعم هي أعلى الفضائل قدرا ، وأعظمها أثرا في الآخرة والأولى . . وهي أن يعتاد فعل الخير إيمانا واحتسابا ، ابتغاء وجه الله ، وطلبا لرضوانه وثوابه ، وخوفا من سخطه وعقابه ، وامتثالا لشريعته واتباعا لرسوله كمن دأب على أن يسدى العون إلى المحتاج رجاء الفوز عند الله . وبهذا أمرنا .

وهذه المرتبة هي مرتبة فضائل القرآن والدين ، قال تعالى : « وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين »[٩٥] .

« فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا »[٩٦] .

ويمثل هذا المستوى الكريم من وصفهم الله بقوله : « ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا ، إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا ، انا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا »[٩٧] .

---

(٩١) تفسير ابن كثير ١ / ٤٩٧ .

(٩٢) صحيح مسلم بشرح النووي ٢ / ١٤١ .

(٩٣) صحيح مسلم بشرح النووي ٣ / ٨٧ دار احياء التراث العربي ـ بيروت .

(٩٤) حديث ابن جدعان رواه مسلم ولفظه : عن عائشة قلت يا رسول الله ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين ، فهل ذاك نافعة ؟ قال : لا ينفعه ، إنه لم يقل يوما رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين » . صحيح مسلم ١ / ١١٠ احياء الكتب العربية ـ القاهرة .

(٩٥) البينة : ٥ .

(٩٦) الكهف : ١١٠ .

(٩٧) الدهر : ٨ ـ ١٠ .

على هذا النمط الرفيع عاش صفوة البشر من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين .

وهذا يرد على من نازع في ذلك من الفلاسفة وأصحاب الفكر المجرد ، لأن العقل البشري إذا انقطع عن نور الوحى ضل وعمى عليه السبيل .

من هذا العرض نعلم أن للفضيلة في ضوء القرآن وتعاليم الإسلام مرتبتين : دنيا وعليا .

فالدنيا هي الفضيلة الإنسانية التي يدعو إليها الضمير والفطرة الإنسانية المجردة .

والعليا هي الفضيلة الدينية القرآنية الموصولة بالله عز وجل والفرق بينهما كالفرق بين السماء والأرض .

القرآن والأخلاق :

إذا نظرنا إلى القرآن وتعاليمه وجدنا انه أعظم دستور أخلاقي على الاطلاق إنه لم ينزل ليكون كتاب علوم أو مجرد كتاب آداب ، وإنما نزل ليكون كتاب الهداية الجامع الذي يعني بتأصيل مكارم الاخلاق التي تصلح الحياة وتسعد النفوس فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويحث الناس أن يصلوا إلى أعلى درجات الكمال يدل على ذلك آيات كثيرة ، نذكر طرفا منها مثل قوله تعالى :

« إن هذا القرآن يهدى للتي هي أقوم »(٩٨) .

« أن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى »(٩٩) .

« الذين يتبعون الرسول النبى الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراه والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم »(١٠٠) .

« ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون »(١٠١) .

---

(٩٨) الاسراء : ٩ .

(٩٩) النحل : ٩٠ .

(١٠٠) الاعراف : ١٥٧ .

(١٠١) البقرة : ١٧٧ .

« والعصر أن الإنسان لفي خسر الا الذين أمنوا وعملوا الصالحات وتواصو بالحق وتواصوا بالصبر »(١٠٢).

« وهديناه النجدين »(١٠٣).

« وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبيل فتفرق بكم عن سبيله »(١٠٤).

من هذا نرى أن تعاليم القرآن والدين كلها تعاليم أخلاقية بالمعنى الشامل .

هذا إذا نظرنا إلى علم القرآن أما إذا نظرنا إلى العمل به ، وجدنا أنه أسمى أنواع السلوك الاخلاقي لانه هو الصورة العملية لتوجيهاته العلمية .

أما إذا نظرنا إلى اعتياده والتخلق به بمعنى التطبع به(١٠٥) فهو أعظم الأخلاق وأكرم الشيم ، وقد أثني الله عز وجل على نبيه بقوله « وإنك لعلى خلق عظيم »(١٠٦).

وقد جاء في الحديث أن سعد بن هشام سأل السيدة عائشة عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : « الست تقرأ القرآن ؟ قلت : بلى ، قالت : فإن خلق نبي الله صلى الله عليه وسلم كان القرآن »(١٠٧).

قال الحافظ أبن كثير :(١٠٨) « ومعنى هذا أنه عليه الصلاة والسلام صار امتثال القرآن أمرا ونهيا سجية له وخلقا تطبعه ، وترك طبعه الجبلي فمهما أمره القرآن فعله ، ومهما نهاه عنه تركه » .

ويؤيد هذا كله قول ابن القيم :(١٠٩) « الدين كله خلق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الدين » .

ويؤكده قول الشيخ شلتوت :(١١٠) « ومن هنا كانت عناية الإسلام بالخلق تفوق كل عناية ولقد وصلت هذه العناية عند الرسول محمد صلى الله عليه وسلم إلى أن جعل الخلق متعلق رسالته » .

---

(١٠٢) سورة العصر بآياتها .

(١٠٣) البلد : ١٠ .

(١٠٤) الأنعام : ١٥٣ .

(١٠٥) أنظر المعجم الوسيط ١ / ٢٥٢ .

(١٠٦) القلم : ٤ .

(١٠٧) رواه مسلم ـ مختصر صحيح مسلم للمنذري حديث / ٣٩٠ .

(١٠٨) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٠٢ .

(١٠٩) مدراج السالكين ٢ / ٣٠٧ .

(١١٠) الإسلام عقيدة وشريعة للشيخ محمود شلتوت ص ٤٦٤ .

شمول أخلاق القرآن :

أخلاق القرآن تستوعب وتتسع لكل عمل إرادي ونشاط إنساني كريم لان قانون هذه الأخلاق قد رسم منهج السلوك للإنسان في جميع مجالات حياته ، وعلاقاته في شتي النواحي الفردية والاجتماعية ، يقول الدكتور دراز في قانون الأخلاق في الإسلام :(١١١) « لا نكتفي بأن نقول إن هذا القانون لم يدع للنشاط الإنساني في ناحيتيه الفردية والإجتماعية ، مجالا حيويا أو فكريا أو أدبيا أو روحيا الا رسم له منهجا للسلوك وفق قاعدة معينة ، بل نقول إنه تخطى علاقة الإنسان بنفسه وعلاقته ببني جنسه ، فشمل علاقته بالكون في جملته وتفصيله ، ووضع لذلك كله ما شاء الله من الآداب المرضية والتعاليم السامية وهكذا جمع ما فرقه الناس باسم الدين وباسم الفلسفة ، ثم كان له عليهما المزيد » .

وبناء على هذا تشمل أخلاق القرآن العقيدة والعبادة ، لأنها تدخل في نطاق علاقة العبد بربه ، وهي أقدس العلاقات ، وأولاها بالتوجيه والتنظيم والعناية »(١١٢).

متى يصير الإيمان خلقا ؟ :

والإيمان باعتباره عملا إراديا يصير ملكة وخلقا بالعمل بموجبه والمداومة عليه ، يرشد إلى هذا قول الدكتور دراز في تفاوت الإيمان :(١١٣) (وأما تفاوته من طريق ثمرته وهي العمل ، فبيانه أن الفكرة النظرية التي تأخذ آثارها العملية تبقى ماثلة في الوجدان لا تزاحمها الاضداد ، ولا يغطى عليها النسيان لأنها حاضرة غالبا في مركز الفكر ، أو كما يقول علماء النفس في بؤرة الشعور ، فهي تستمد من العمل بها قوة وثباتا وإشراقا حتى تصبح للنفس ملكة وخلقا ، وكذلك يستمد منها العمل سهولة ويسرا عند العود إليها مرة أخرى . وهكذا كلما ازداد تكرر العمل بمقتضى تلك الفكرة ازدادت قوة في نفسها واستعدادا لانتاج أمثالة من الأعمال بدون تكلف ، وازداد العمل لصوقا بالنفس حتى يكون انتزاعه ومفارقته أشبه بأنتزاع الغرائز ولذلك قيل : « العادة طبيعة ثانية » .

وبعكس ذلك من كثر تهاونه بتطبيق العلم على العمل نقص من قوة علمه ، وثبات عقيدته بمقدار تهاونه بالعمل وتضييعه له » .

---

(١١١) دراسات إسلامية للدكتور محمد عبد الله دراز ص ١١٣ .

(١١٢) وقد سبق التنبية على ذلك في آية البر رقم ١٧٧ من سورة البقرة ـ هذا وقد ظن فلاسفة الأخلاق أن الأخلاق الدينية منحصرة في ذلك وليس الأمر كما زعموا (أنظر دراسات إسلامية للدكتور محمد عبد الله دراز ص ١١١ .

(١١٣) المختار من كنوز السنة للدكتور محمد عبد الله دراز ص ١٠٢ .

المعنى الخاص :

قد يطلق الخلق أو الفضيلة في المصطلح الإسلامي على نوع خاص ، وهو ما يتعلق بتنظيم العلاقة بين المرء ونفسه ، وبينه وبين الناس ، فلا يدخل فيه العقيدة ولا العبادة وبناء على هذا قسموا نظام الإسلام إلى عقيدة وعبادة ، وخلق ، وتشريع أو معاملات(١١٤) .

قال الأستاذ محمد المبارك في الأخلاق :(١١٥)(اما القسم الثالث من نظام الإسلام فيشتمل على قواعد السلوك في الحياة الفردية فيما بين الإنسان ونفسه ، وفي الحياة الاجتماعية فيما بينه وبين الناس ، على اختلاف نوعية علاقتهم به) .

ويدل على هذا الاطلاق قوله صلى الله عليه وسلم : « أتق الله حيثما كنت ، واتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن »(١١٦) .

ونحن هنا إنما نريد الفضيلة بالمعنى العام الشامل .

لمحة عن أصول الفضائل عند الفلاسفة :

اتجه المفكرون وعلماء الأخلاق قديما وحديثا إلى تحديد أمهات الفضائل وأصولها الكبرى التي يرجع إليها غيرها ، فكان لهم في ذلك نظريات لم تسلم من النقد والاعتراض ذهب سقراط إلى أنه لا فضيلة الا العلم والمعرفة واستنتج من هذا نتيجتين :

١ ـ أن الانسان لا يستطيع أن يعمل الخير ما لم يعلم الخير .

٢ ـ أن علم الانسان بأن الشيء خير علما تاما يحمله حتما على عمله ، ومعرفته بضرر شيء وشره تحمله حتما على تركه .

وسقراط على حق في النتيجة الأولى ، ومخطىء في النتيجة الثانية(١١٧)، لان بالنفس شهوات وأهواء معوقة ، وكثيرا ما يعرف الإنسان الخير ولا يفعله ، ويعرف الشر ويأتيه قال تعالى (أفرايت من أتخذ الهه هواه وأضله الله على علم)(١١٨) .

وقد تأثر المفكرون الإسلاميون بنظرية أفلاطون في تقسم الفضائل إلى أربع ، وبنظرية

---

(١١٤) نظام الإسلام العقيدة والعبادة لمحمد المبارك ص ٢٧ وما بعدها .

(١١٥) المرجع السابق ص ٢٩ .

(١١٦) رواه الترمذي عن ابى ذر ، ومعاذ بن جبل ، وقال حديث حسن ، وفي بعض النسخ حسن صحيح رواه النووي في الأربعين رقم ١٨ .

(١١٧) أنظر الأخلاق لأحمد أمين ص ١٩٣ وما بعدها .

(١١٨) الجاثية : ٢٣ .

أرسطو في أن الفضيلة وسط بين رذيلتين ، وسار على ذلك كبارهم كابن مسكوية والإمام الغزالي وغيرهما ، يقول الدكتور محمود زقزوق :(١١٩)(لقد كان لنظرية « أفلاطون » في الفضائل الأساسية : الحكمة والعفة والشجاعة والعدالة ، ولنظرية الأوساط الأرسطية في الفضيلة أثر كبير لدى الكثيرين من مفكري المسلمين(١٢٠) ، وبخاصة المشتغلين بالاخلاق فقد جرى ابن مسكوية والغزالي ـ على سبيل المثال على رأى أفلاطون في أصول الفضائل الأربع المشار إليها) ا هـ .

وقد قوبل هذا التقسيم بالنقد والاعتراض ، فأن الحكمة إذا فسرت بمعناها الواسع الذي يقتضيه اللفظ شملت جميع الفضائل من شجاعة وعفة وعدل وغيرها ، فكل شيء لا بد أن يتصف بالحكمة ليكون فاضلا(١٢١) .

على أنه لم يعد تقسيم قوى النفس إلى شهوة وغضب وعقل مقبولا من وجهة النظر العلمية ، ففي النفس عدد كبير من الغرائز والقوى الفطرية وقد تعرضت نظرية الأوساط لنقد شديد ، فقيل في ردها : أن الفضيلة ليست دائما في نقطة المنتصف ، فالشجاعة أقرب إلى التهور ، والكرم أقرب إلى السرف .

وهناك كثير من الفضائل لا يظهر انها أواسط بين رذائل كالصدق والعدل فليس هناك الا كذب أو صدق وعدل أو ظلم(١٢٢) .

وبعض المحدثين يقسم الفضائل إلى شخصية واجتماعية ودينية ، وقد أعترض عليه بأنه لا يوجد انفصال بين هذه الأقسام(١٢٣) .

هذه نماذج سريعة للنظريات الفلسفية في أصول الفضائل ، ذكرتها لإبراز فضل ما جاء بالقرآن بهذا الصدد .

---

(١١٩) مقدمة في علم الأخلاق للدكتور محمود حمدي زقزوق ص ١٤٨ بتصرف .

(١٢٠) قال ابن مسكوية بنظرية الأوساط في كتابه تهذيب الأخلاق وتطهير اوعراق ص ٣٤ ، وقال بها الإمام الغزالي في كتابه ميزان العمل ص ٧٦ .

(١٢١) الأخلاق لأحمد أمين ص ١٩٦ .

(١٢٢) الأخلاق لأحمد أمين ص ١٩٧ .

(١٢٣) المرجع السابق .

أصول الفضائل كما يرشد القرآن ويقرر العلماء :

الفضائل مهما تفرعت وتنوعت تقوم على أصلين عظيمين هما :

(١) العلم .

(٢) القدرة .

هذا ما أرشد اليه القرآن في معرض الثناء على طائفة من الأنبياء في مقدمتهم ابراهيم عليه السلام ، قال تعالى : « واذكر عبادنا ابراهيم وإسحاق ويعقوب أولى الأيدي والأبصار »(١٢٤).

قال البيضاوي :(١٢٥) « أولى الأيدي والأبصار » أولى القوة في الطاعة والبصيرة في الدين .

ويقول ابن القيم :(١٢٦) « فالأيدي القوى والعزائم في ذات الله ، والأبصار : البصائر في أمر الله ، وعبارات السلف تدور على ذلك .

قال ابن عباس : أولى القوة في طاعة الله ، والمعرفة بالله .

وقال الكلبي : أولى القوة في العبادة والبصر فيها .

وقال مجاهد : « الأيدي » القوة في طاعة الله ، و « الأبصار » البصر بالحق .

وقال سعيد بن حبير : « الأيدي » : القوة في العمل ، و « الأبصار » بصرهم بما هم فيه من دينهم . ١ هـ .

وهذا ما قرره العلماء والحكماء .

يقول الفخر الرازي :(١٢٧) « اعلم أن الفضائل الحقيقية يرجع حاصلها إلى أمرين : إلى العلم وإلى القدرة » .

وقد بين الإمام الغزالي أن الصفات الحميدة ، ترجع جملتها إلى العلم والقدرة إذا علم حقائق الأمور ، وقدر على حمل نفسه عليها بقهر شهواته ، فجميع خلال الخير يتشعب من هذين الوصفين » .

---

(١٢٤) سورة ص : ٤٥ .

(١٢٥) تفسير البيضاوي ص ٦٠٤ .

(١٢٦) إغاثة اللهفان لابن القيم ٢ / ١٦٧ .

(١٢٧) تفسير الفخر الرازي ١٠ / ٨٨ .

ثم يقول بنفس المرجع : الأخلاق الحميدة والفضائل الشريفة ترجع جملتها إلى كمال العلم والقدرة[١٢٨] .

ويقول الشيخ شلتوت في ختام تفسيره لسورة الفاتحة : وتحت عنوان : (كمال الإنسان بكمال قوتيه) يقول :[١٢٩] « هذه سورة الفاتحة ، ونحن إذا ألقينا إلى ما سبق نظرة أجمالية ، وجدنا هذه السورة الكريمة قد أستوعبت ما يتوقف عليله كمال الإنسان وسعادته في الدنيا والآخرة : ذلك بأن كمال الإنسان إنما هو باستكمال قوتين :

قوة النظر والعلم ، وقوة الكسب والعمل ، فبالاولى يدرك الحق ويؤمن به ، ويغذي به نفسه وعقله ، وبالثانية يسلك طريق الخير والفلاح ، والهدى والرشاد .

والفاتحة تكفل نصفها الأول ببيان الحقيقة التي هي أساس هذا الوجود ، وأصل السعادة المطلقة بتقرير ربوبية الله للعالمين ، ورحمته ورحمانيته ، وتفرده بالسلطان في يوم الدين والجزاء ، وهذا هو الحق الذي بإدراكه تكمل قوة العلم والمعرفة .

وتكفل نصفها الثاني ، ببيان أساس الخطة العملية في الحياة سواء في العبادات أو في المعاملات ، فالعبادة لله ، والاستعانة بالله ، والهداية من الله ، وبالتزام طريق الله ، وبالبعد عن طريق الجاحدين المستكبرين ، والضالين المتحيرين .

وان المتتبع للقرآن جميعه ، الواقف على مقاصده ، ومعارفه ، يرى أنه جاء تفصيلا لما أجملته هذه السورة ، وحددته من طريقي الكمال الإنساني في قوتيه .

بهذا كانت هذه السورة (فاتحة الكتاب) وكانت « أم القرآن » وكانت هي السورة الوحيدة التي طلب من المؤمنين أن يقرأوها في كل صلاة ، وفي جميع الركعات ، وفي كل الأوقات ، ويسرت على لسان كل مؤمن ، وأصبحت في الإسلام كأنها « مجمع أشعة » تنير بضوئها كل شيء ، وتبسطة على كل شيء ١ هـ .

ومن الكلمات المعبرة عن موضوعنا قول ابن المقفع[١٣٠]« غاية الناس وحاجتهم صلاح المعاش والمعاد .

والسبيل إلى دركها العقل الصحيح ، وأمارة صحة العقل اختيار الأمور بالبصر ، وتنفيذ البصر بالعزم » .

---

(١٢٨) أحياء علوم الدين للإمام الغزالي ٥ / ٢٥٩ ـ بتصرف يسير .

(١٢٩) تفسير القرآن الكريم ـ الأجزاء العشرة الاولى للإمام الأكبر محمود شلتوت ص ٣٧ .

(١٣٠) الأدب الصغير من كتاب آثار ابن المقفع ص ٣١٨ .

العلـــــم :

يراد بالعلم معرفة الحق والخير ، وما ينبغي فعله ، وما ينبغي تركه . . وطريق ذلك العقل والشرع معاً .

إن الله عز وجل خلق العقل للإنسان ليهتدى بنوره ، ولكنه لا يستقل بهداية الإنسان في كل شيء ، ويحتاج أشد الحاجة إلى تسديد الشرع والاستنارة بتعاليمه .

يقول ابن القيم :(١٣١) « العبد أحوج شيء إلى علم ما يضره ليجتنبه ، وما ينفعه ليحرص عليه ويفعله ، فيحب النافع ويبغض الضار ، فتكون محبته وكراهته موافقتين لمحبة الله تعالى وكراهته ، وهذا من لوازم العبودية .

وهنا طريقان : العقل والشرع ، أما العقل فقد وضع الله سبحانه في العقول والفطر استحسان الصدق والعدل والإحسان ، والبر والعفة والشجاعة ومكارم الاخلاق . . ووضع في العقول والفطر واستقباح أضداد ذلك ونسبة هذا الاستحسان والاستقباح إلى العقول والفطر كنسبة استحسان شرب الماء البارد عند الظمأ وأكل الطعام اللذيذ النافع عند الجوع ولبس ما يدفئه عند البرد ، فكما لا يمكنه أن يدفع عن نفسه وطبعه استحسان ذلك ونفعه ، فكذلك لا يدفع عن نفسه وفطرته استحسان صفات الكمال ونفعها واستقباح أضدادها ومن قال إن ذلك لا يعلم بالعقل ولا بالفطرة ، وإنما عرف بمجرد السمع فقوله باطل وقد بينا بطلانه في كتاب « المفتاح »(١٣٢) من ستين وجها .

والطريق الثاني لمعرفة الضار والنافع من الأعمال : السمع ، وهو أوسع وأبين وأصدق من الطريق الأول ، لخفاء صفات الأفعال وأحوالها ونتائجها ، وإن العالم بذلك على التفصيل ليس هو الا الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، فأعلم الناس وأصحهم عقلا ورأيا واستحسانا من كان عقله ورأيه واستحسانه وقياسه موافقا للسنة ، قال تعالى : « ويرى الذين أوتو العلم الذي أنزل اليك من ربك هو الحق »(١٣٣) .

فعلم الدين اذن هو الأساس ، وهو أعظم الهدى الذى لا يضل من تمسك به ، وعلى قدر حصيلة المرء من هذا العلم يكون أهتداؤه إلى الخيرات ، وتمييزه بين الحسن والقبيح ، وقدرته على الإحسان ..

---

(١٣١) اغاثة اللهفان لابن القيم ٢ / ١٣٨ ـ بتصرف .

(١٣٢) مفتاح دار السعادة الجزء الثاني .

(١٣٣) سبأ : ٦ .

وليس معنى هذا أنه يلزم كل أحد أن يحيط بعلم الدين ، فان هذا ليس بالإمكان ، وإنما يراد أنه يجب على كل مسلم ويطلب في حقه أن يعرف من أمر دينه ما يمكنه من أداء ما فرض عليه من الأعمال والتقرب إليه تعالى ما استطاع بنوافل الطاعات ، وذلك يختلف باختلاف الأفراد .

وإذا لم تكن عند المرء قدرة على تحصيل هذا العلم بنفسه ، يستطيع أن يحصل عليه بسؤال أهل الذكر كما قال تعالى : « فأسألوا أهل الذكر أن كنتم لا تعلمون »(١٣٤) وعلى المرء كذلك أن يستعمل عقله ويستفتى قلبه في المجال الملائم المشروع .

القدرة :

يراد بها ما يشمل العزم والصبر والقوة ، والصبر وقوة الارادة والاحتمال هي العنصر الأساسي في القدرة الأخلاقية وقوامها .

ويدل على أهمية الصبر ومنزلته قوله صلى الله عليه وسلم : الصبر نصف الإيمان »(١٣٥) قال الإمام الغزالي في بيانه : « ان الإيمان حين يطلق على التصديقات والأعمال جميعاً يكون له ركنان : أحدهما اليقين ، والآخر الصبر ، والمراد باليقين المعارف القطعية الحاصلة بهداية الله تعالى عبده إلى أصول الدين ، والمراد بالصبر العمل بمقتضى اليقين ، إذا اليقين يعرفه أن المعصية ضارة ، والطاعة نافعة ، ولا يمكن ترك المعصية ، والمواظبة على الطاعة الا بالصبر ، فيكون الصبر نصف الإيمان بهذا الاعتبار » .

ويقول الشيخ الغزالي :(١٣٦) « قد وصف الله المؤمنين بخلال طيبة كثيرة في مقدمتها « الصبر » والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وانفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرؤن بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتهم »(١٣٧) .

ولماذا يكون التسليم عليهم مقرونا بما صبروا فقط ، مع أنهم ادخلوا الجنة بشمائل كثيرة ؟ الواقع أن الصبر عنصر أصيل في بقية الأعمال الأخرى ، من صلاة ونفقة وإصلاح إنه الخيط

---

(١٣٤) النحل : ٤٣ .

(١٣٥) قال الحافظ العراقي : رواه أبو نعيم في الحلية ، والخطيب في التاريخ من حديث ابن مسعود بسند حسن ـ احياء علوم الدين للإمام الغزالي ١ / ٤٢٢ .

(١٣٦) الجانب العاطفي من الإسلام للشيخ محمد الغزالي ص ٢٣٠ .

(١٣٧) الرعد : ٢٢ ـ ٢٤ .

الذي جمعها ، بل هو في كيانها كالماء فى صنوف الاحياء » .

أقول وفي ضوء هذا ندرك لماذا جعل القرآن الصبر وحده ، مناط الفلاح في الآخرة ودخول الجنة ، كما قال عز وجل « وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا »(١٣٨)، « أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما »(١٣٩) .

وقد أبرز ابن القيم أهمية الصبروبين بالتفصيل أنه قاعدة الفضائل كلها فقال :(١٤٠) لما كان الصبر المحمود هو الصبر النفساني الاختياري عن اجابة داعي الهوى المذموم كانت مراتبه واسماؤه بحسب متعلقة ، فإنه إن كان صبرا عن شهوة الفرج المحرمة سمى عفة ، وضدها الفجور والزنا والعهر ، وإن كان عن شهوة البطن وعدم التسرع إلى الطعام أو تناول ما لا يجمل منه سمى شرف نفس وشبع نفس ، وسمى ضده شرها ودناءة ووضاعة نفس ، وان كان عن إظهار ما لا يحسن إظهاره من الكلام سمى كتمان سر ، وضده إذاعة وإفشاء ، أو تهمة أو فحشاء أو سبا أو كذبا أو قذفا ، وإن كان عن فضول العيش سمى زهدا ، وضده حرصا ، وإن كان على قدر يكفي من الدنيا سمى قناعة ، وضدها الحرص أيضاً ، وإن كان عن اجابة داعى الغضب سمى حلما ، وضده تسرعا ، وان كان اجابة داعى العجلة سمى وقارا وثباتا ، وضده طيشا وخفة ، وإن كان عن أجابة داعى الفرار والهرب سمى شجاعة ، وضده جبنا وخورا ، وان كان عن إجابة داعي الانتقام سمى عفوا ، وضده انتقاما وعقوبة وإن كان عن إجابة داعى الإمساك والبخل سمى جودا ، وضده بخلا ، وان كان عن إجابة داعى الطعام والشراب في وقت مخصوص سمى صوما ، وان كان عن إجابة داعى العجز والكسل سمى كيسا ، وإن كان عن اجابة داعى إلقاء الكل على الناس وعدم حمل كلهم سمى مروءة ، فله عند كل فعل وترك اسم يخصه بحسب متعلقة والاسم الجامع لذلك كله « الصبر » . وهذا يدلك على ارتباط مقامات الدين كلها بالصبر من أولها إلى آخرها » .

---

(١٣٨) الإنسان : ١٢ .

(١٣٩) الفرقان : ٧٥ .

(١٤٠) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن القيم ص ١٩ .

مراتب الفضيلة

أما سائر الفضائل الناشئة عن الاصلين السابقين ، والمتفرعة عنهما ، فلها مرتبتان بحسب درجة الالزام .

الاولى : العدل .

الثانية : الفضل أو (الإحسان) .

والعدل : هو ما يفرضه الشرع ويأثم تاركه ويستحق العقاب ، فالفضائل النفسية المتعلقة به تساويه فى المرتبة .

والفضل أو الإحسان : هو ما يستحبه الشرع ويندب إليه ، ولا يستحق تاركه العقاب بل يحرم من ثوابه فحسب ، والفضائل النفسية المتعلقة به تساويه فى المرتبة .

وهاتان المرتبتان تستوعبان كل الفضائل ، وليس وراء ذلك إلا رذيلة الجور والظلم ، وقد حرمه الله على نفسه ، وجعله محرما بين الناس يستوجب النقمة والعذاب .

وقد جاء القرآن بكل هذا فى أوضح بيان ، قال تعالى : (أن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي »[١٤١] .

وفى معنى هذه الآية جاء بالقرآن آيات كثيرة لا تحصى .

قال الراغب :[١٤٢] وقوله تعالى : « أن الله يأمر بالعدل والإحسان » « فالإحسان » فوق العدل ، وذاك أن العدل هو أن يعطي ما عليه ويأخذ ما له ، والإحسان أن يعطى أكثر مما عليه ويأخذ أقل مما له ، فالإحسان زائد على العدل ، فتحرى العدل واجب وتحرى الإحسان ندب وتطوع » .

ولصاحب تفصيل النشأتين كلام فى معناهما أكثر شمولا ، قال :[١٤٣] « الواجب يقال له العدل ، والندب يقال له الإحسان ، وهما المذكوران فى قوله تعالى : « أن الله يأمر بالعدل والإحسان » فالفرض والعدل تحرى الإنسان لما إذا عمله أثيب وإذا تركه عوقب ، والندب

---

(١٤١) النحل : ٩٠ .

(١٤٢) معجم مفردات الفاظ القرآن للراغب الاصفهاني ص ٣٩٥ .

(١٤٣) تفضيل النشأتين وتحصيل السعادتين للحسين بن محمد بن المفضل وهو الراغب الأصفهاني ص ٨٧ .

والإحسان تحرى الإنسان لما إذا عمله أثيب وإذا تركه لم يعاقب ، والإنصاف من العدل ، والتفضل من البر والإحسان » .

وقال الإمام الرازى :(١٤٤) « إن العدل فى الطاعات هو أداء الواجبات ، أما الزيادة على الواجبات فهى أيضا طاعات ، وذلك من باب الإحسان » .

وفي تقرير هذا المعنى بقول الدكتور صبحى محمصاني :(١٤٥) « أن العمل الصالح بمعناه العام ، يدور حول الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر فيشمل فضيلتي العدل والإحسان بمعناهما المشهور الواسع وما يتفرع عنهما من فضائل أخرى مترابطة .

وهكذا يكون للعمل الصالح بهذا المعنى حدان متطرفان : أدنى وأعلى فحده الأدنى هو العدل أو الاستقامة في التصرفات جميعا ، لا سيما بإعطاء كل ذى حق حقه ، أما حده الأعلى فهو الإحسان أو التبرع بما يزيد على حد العدل ، وكلا الحدين مأمور بهما في الآية الكريمة : « أن الله يأمر بالعدل والإحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكورون »(١٤٦)، وسنرى أن نطاق الكلمتين العدل والإحسان ينطوي تقريبا على جميع الفضائل الأخلاقية » .

شمول العدل والإحسان :

وما أشار إليه الدكتور صبحي آنفا من شمول العدل والإحسان لجميع الفضائل أكده وصرح به العلماء :

أما العدل فيشمل : ١) العدل بين العبد وربه . ٢) والعدل بين المرء ونفسه .

والعدل بينه وبين الناس ، جاء في تفسير القرطبي :(١٤٧) « وقال ابن العربي العدل بين العبد وبين ربه إيثار حقه تعالى على حظ نفسه ، وتقديم رضاه على هواه ، والاجتناب للزواجر والامتثال للأوامر ، وأما العدل بينه وبين نفسه فمنعها مما فيه هلاكها ، قال الله تعالى : « ونهى النفس عن الهوى »(١٤٨) وعزوب الاطماع عن الاتباع ، ولزوم القناعة في كل حال

---

(١٤٤) تفسير الفخر الرازي ٢٠ / ١٠٣ .

(١٤٥) الدعائم الخلقية للقوانين الشرعية للمحامي الدكتور صبحي محمصاني ص ١٣٤ .

(١٤٦) النحل : ٩٠ .

(١٤٧) تفسير القرطبي ١٠ / ١٦٦ .

(١٤٨) النازعات : ٤٠ .

ومعنى ، وأما العدل بينه وبين الخلق فبذل النصيحه ، وترك الخيانة فيما قل وكثر ، والإنصاف من نفسك لهم بكل وجه ، ولا يكون منك إساءة إلى أحد بقول ولا فعل لا في سر ولا في علن ، والصبر على ما يصيبك منهم من البلوي ، وأقل ذلك الانصاف وترك الاذى » .

ولا شك أن خلق العدل في المعاملة « يشمل أيضا العدل في الحكم ، والصدق وقول الحق والوفاء ، ونصرة المظلوم ، واداء الحقوق .

أما الإحسان فيشمل نوعين : إحسان الكيفية ، وإحسان الكمية .

الأول : الإحسان في الكيفية ، يراد به أداء العمل بدقة وإتقان ، وتحسين هيئته وصفته كالصلاة إذا زدنا على أركانها المفروضة ، من نيه وتكبير وفاتحة وركوع وسجود القيام بسنتها من دعاء الاستفتاح ، وقراءة سورة بعد الفاتحة وإطالة الركوع والسجود والتسبيح فيهما مع زيادة الخشية والخشوع في الصلاة كلها ، ونحو ذلك مما يكمل صفتها وهيئتها بأي وجه ولو بالتبكير بأن يؤدي المفروضة في وقت الأفضلية .

الثاني : إحسان الكمية يراد به الزيادة في المقدار بأن يزيد مثلا على أداء الصلوات المكتوبة القيام بالنوافل من الرواتب وصلاة الضحى وقيام الليل وهكذا .

وفي هذا يقول الإمام الرازي :(١٤٩) « الحاصل أن العدل عبارة عن القدر الواجب من الخيرات ، والإحسان عبارة عن الزيادات في تلك الطاعات ، بحسب الكمية وبحسب الكيفية ، وبحسب الدواعي والصوارف ، وبحسب الاستغراق في شهود مقامات العبودية والربوبية ، فهذا هو الإحسان » .

ومن الممكن أن يجتمع إحسان الكيفية وإحسان الكمية .

ويلاحظ أن الإحسان المذكور يشمل القيام بكل أنواع التطوعات والتقرب إلى الله عز وجل بنوافل الطاعات ، ومن أخلاق الإحسان في المعاملة مثلا الإيثار والعفو والتسامح والمياسرة والتطوع بالصدقة على المحتاج .

العـــدل في العـــبادات أفضـــل :

ويلاحظ أن الفرض أو العدل في العبادات أرفع قدرا ، وأعظم أجرا من التطوع والإحسان لان الله تعالى يفرض لعبادته ما هو أحب إليه ، يدل على ذلك صراحة ما روى عن أبي هريرة

---

(١٤٩) تفسير الفخر الرازي ٢٠ / ١٠٤ .

رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أن الله تعالى قال : من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب الى مما أفترضته عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه »(١٥٠).

والإحسان في المعاملات أفضل :

أما بالنسبة لمعاملة العباد فالفضل والإحسان أرفع قدرا وأعظم أجرا ، لان الله تعالى يحب الأنفع والأصلح لعباده ، وهنا كلام جيد للدكتور دراز جدير بالتأمل قال :(١٥١) « أما المعاملة بالمثل فلا نجد فيه نهيا عنها(١٥٢) ، ولا تحريضا عليها ، وإنما نجد إذنا وتخييرا ورفعا للحرج لا زائدا على ذلك .

هكذا نظرنا في القرآن حين يتحدث في شأن المعاملة المالية ، فوجدناه من جهة ينهى عن أخذ الربا ، وعن أكل أموال الناس بالباطل ، ومن الجهة الأخرى يأمر الدائن بإنظار مدينه المعسر ، ويندبه إلى التصدق عليه بدينه ، أما المحاسبة على السواء فلا يذكرها القرآن قادحا ولا مادحا ولكن مقررا لوضعها القانوني المباح : « فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون »(١٥٣).

ثم يزيد الأمر ايضاحا في موضع آخر فيقول :(١٥٤) « المجال الذي يكون فيه العدل فضيلة محمودة ، بل فريضة مكتوبة ، هو المجال الذي تكون أنت فيه طرفا ثالثا وسطا بين طرفين ، فيكون واجبك أن توفي كلا منهما حقه غير منقوص ولا مزيد وكل شيء من المكارمة والإيثار هنا هو الجور بعينه هذا هو ما نسميه مقام الحكم والفصل بين الناس ، ونحن إذا تأملنا أكثر النصوص القرآنية التي وردت في مدح العدل والأمر به ، وجدناها صريحة في هذا الباب « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل »(١٥٥) . « فاحكم بين الناس بالحق »(١٥٦) . « وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط »(١٥٧) .

---

(١٥٠) رواه البخاري ، وذكره النووي في الأربعين رقم / ٣٨ .

(١٥١) نظرات في الإسلام للدكتور محمد عبد الله دراز ص ٦٧ .

(١٥٢) أي القرآن لان أصل الكلام فيه .

(١٥٣) البقرة : ٢٧٩ .

(١٥٤) نظرات في الإسلام للدكتور محمد عبد الله دراز ص ٧٠ .

(١٥٥) النساء : ٥٨ .

(١٥٦) ص : ٢٦ .

(١٥٧) المائدة : ٤٢ .

أما حيث تكون أنت أحد الطرفين تتصرف في شيئك ، وتساوم في حقك فهذا هو ما نسميه مقام المعاملة ، وهذا هو المجال الذي تتوجه فيه دعوة القرآن إلى العفو والمسامحة ، وإلى الإيثار والمجاملة ، وهو المجال الذي يخرج فيه مبدأ العدل والمساواة من نطاق الفضائل والرذائل جميعها ، إذ يهبط من مستوى الواجبات إلى مستوى الرخص والمباحات ، وتبقى الفضيلة للفضل وحده » .

ولا ينبغي أن يفوتنا هنا التنبيه أنه ليس المراد بالعدل والإحسان مجرد فعلهما وسلوكهما ، ولكن المراد العادات والملكات والهيئات النفسية المتعلقة بهما ، لان ما ذكر هو الفضيلة على الحقيقة .

وبعد : فهذا ما أردت بحثه من هذا الموضوع الجليل ، نسأله تعالى أن يتجاوز عنا ، ويهدينا سواء السبيل .

المراجع الأساسية (*)

مرتبة حسب ورودها في البحث

١ ـ مدارج السالكين لابن القيم ـ دار الكتاب العربي بيروت سنة ١٩٧٢ .

٢ ـ الاسلام عقيدة وشريعة للإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت ـ دار الشرق ـ القاهرة .

٣ ـ إحياء علوم الدين للإمام الغزالي ـ طبعة مصورة عن طبعة لجنة نشر الثقافة الإسلامية سنة ١٣٥٦ هـ ـ دار الفكر ـ بيروت .

٤ ـ أصول الدعوة للدكتور عبد الكريم زيدان ، الأستاذ بقسم الدين بكلية الآداب بجامعة بغداد ـ مكتبة المنار الإسلامية ـ بغداد ـ ط ـ٣ سنة ١٩٧٦ م .

٥ ـ دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية والدولية للدكتور محمد عبد الله دراز دار القلم الكويت سنة ١٩٨٠ م .

٦ ـ تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق لابن مسكويه ـ المطبعة المصرية ومكتبتها .

٧ ـ تأملات في فلسفة الأخلاق للشيخ منصور رجب الأستاذ بكلية أصول الدين ـ مطبعة مخيمر سنة ١٩٥٣ م . القاهرة .

٨ ـ الأخلاق للأستاذ أحمد أمين ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت سنة ١٩٧٤ .

٩ ـ القاموس المحيط للفيروز أبادي ـ دار الجيل ـ بيروت .

١٠ ـ لسان العرب لابن منظور ـ معجم لغوى علمي قدم له الشيخ عبد الله العلايلي ـ إعداد وتصنيف يوسف خياط ـ دار لسان العرب ـ بيروت .

١١ ـ مذكرات علم الأخلاق للأستاذ محمد يوسف مرسي مدرس بكلية أصول الدين ـ مطبعة شبرا ومكتبتها ـ القاهرة سنة ١٩٣٩ م .

١٢ ـ مقدمة في علم الأخلاق للدكتور حمدي زقزوق أستاذ بجامعتي الأزهر وقطر ـ دار القلم ـ الكويت .

١٣ ـ الذريعة إلى مكارم الشريعة للراغب الأصفهاني ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت .

١٤ ـ الصحاح في اللغة والعلوم ، تجديد صحاح العلامة الجوهري ـ تقديم الشيخ عبد الله العلايلي إعداد وتصنيف نديم مرعشلي ـ وأسامة مرعشلي ـ دار الحضارة العربية ـ بيروت .

---

* أما مواضع الآيات ومراجع الأحاديث ، فقد اكتفيت بذكرها في محلها من البحث .

١٥ ـ تفسير القرآن العظيم للإمام الحافظ أبن كثير ـ دار المعرفة ـ بيروت .

١٦ ـ صحيح مسلم بشرح النووي ـ دار احياء التراث العربي ـ بيروت .

١٧ ـ المعجم الوسيط ـ مجمع اللغة العربية ـ مطابع دار المعارف بمصر .

١٨ ـ المختار من كنوز السنة للدكتور محمد عبد الله دراز الطبعة الرابعة وهي طبعة أمير دولة قطر .

١٩ ـ نظام الإسلام : العقيدة والعبادة ، لمحمد المبارك عميد كلية الشريعة بجامعة دمشق سابقا ، دار الفكر ـ بيروت سنة ١٩٨١ م .

٢٠ ـ ميزان العمل للإمام الغزالي ـ مكتبة الجندي ـ القاهرة .

٢١ ـ تفسير البيضاوي ـ دار الجيل ـ بيروت .

٢٢ ـ إغاثة اللهفان لابن القيم ـ دار المعرفة ـ بيروت .

٢٣ ـ التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي ـ دار الكتب العلمية ـ طهران .

٢٤ ـ تفسير القرآن الكريم الأجزاء العشرة الأولى للإمام الأكبر محمود شلتوت ـ دار الشرق ـ القاهرة ط ٧ سنة ١٩٧٩ م .

٢٥ ـ الأدب الصغير من كتاب آثار ابن المقفع ـ دار مكتبة الحياة ـ بيروت .

٢٦ ـ مفتاح دار السعادة لابن القيم ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت .

٢٧ ـ الجانب العاطفي من الإسلام للشيخ محمد العزالي ـ دار الكتب الحديثة ـ القاهرة .

٢٨ ـ عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن القيم ـ دار الافاق الجديدة ـ بيروت سنة ١٩٧٨ م .

٢٩ ـ معجم مفردات الفاظ القرآن للراغب الاصفهاني ـ دار الفكر ـ بيروت .

٣٠ ـ تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين للراغب الاصفهاني ـ دار مكتبة الحياة ـ بيروت .

٣١ ـ الدعائم الخلقية للقوانين الشرعية ، للمحامي الدكتور صبحي محمصاني ـ دار العلم للملايين ـ بيروت .

٣٢ ـ تفسير القرطبي ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت سنة ١٩٦٥ .

٣٣ ـ نظرات في الإسلام للدكتور محمد عبد الله دراز ـ المكتب الفني للنشر ـ القاهرة سنة ١٩٥٨ .